

شرح كتاب

الإعتصام بالكتاب والسنة

من صحيح البخاري

تقديم

أناحيد بن عبد السمير

غفر الله لها ولوالديها

١٤٣٦ من الهجرة النبوية الشريفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدّم لكم مدوّنة **(عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)** تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

<https://anaheedblogger.blogspot.com>

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من عمل الطالبات ولم تطلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّوجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الثالث

اللقاء الحادي عشر..... ٣

تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوفِ فِي الدِّينِ وَالْبِدَعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا

الْحَقَّ﴾..... ٣

اللقاء الثاني عشر..... ٣١

بَابُ إِثْمِ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا..... ٣١

بَابُ مَا يُذَكَّرُ مِنْ ذَمِّ الرَّأْيِ وَتَكْلُفِ الْقِيَاسِ..... ٣١

اللقاء الثالث عشر..... ٥٨

بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُسْأَلُ مِمَّا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَيَقُولُ: "لَا أَدْرِي"، أَوْ لَمْ يُجِبْ حَتَّى يُنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَلَمْ يَقُلْ بِرَأْيٍ وَلَا

بِقِيَاسٍ..... ٥٨

بَابُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِمَّا

عَلَّمَهُ اللَّهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمَثِيلٍ..... ٥٨

اللقاء الرابع عشر..... ٨٨

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:..... ٨٨

"لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ"..... ٨٨

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا﴾..... ٨٨

اللقاء الحادي عشر

تابع بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوبِ فِي الدِّينِ وَالْبِدْعِ لِقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

نحمد الله حمداً طيباً مباركاً، ونسأله بمنه وكرمه أن يجعلنا من أهل
القرآن والسنة الذين ينهجون منهج نبهم -صلى الله عليه وسلم- في
الاعتصام بالكتاب والسنة.

ولا زلنا في هذا المجلس المبارك نتابع دراستنا في كتاب الاعتصام من
صحيح البخاري، وقد وصلنا إلى **الباب الخامس**. في مجمل دراستنا السابقة
وصلنا لأمر مهم: **أن من أراد النجاة فليس له إلا أن يتمسك بحبل الله**، وحبل
الله هو: الكتاب والسنة. والاعتصام ليس مجرد دعوى، يعني يقول العبد:
"أنا متمسك بالكتاب والسنة ومنهجي الكتاب والسنة!" الاعتصام ليس
دعوى؛ لأن من **صفات المنافقين** أنهم: يدعون الحقائق، ومن **صفات**
المؤمنين أنهم: يحققون الحقائق. المنافقون يدعون الحقائق فيقولون: "نحن

نريد الصلاح، نحن متمسكون بالكتاب والسنة"، أما أهل الإيمان فليسوا أهل دعوى، إنما أهل تحقيق، من يقول: "أنا معتصم بالكتاب والسنة"؛ ترى أثر الكتاب والسنة في كل مسلكه ابتداءً باهتمامه أن يتعلم الكتاب والسنة، وانتهاءً بأن تجد أثر ما تعلمه على تصرفاته، ثم تجده إن لم يعلم شيئاً، سأل عنه، ثم تجده إذا سأل لا يتعمق ولا ينازع في العلم، ولا يغلو، ولا يدخل في البدع.

معنى ذلك أن المتمسك بالكتاب والسنة، عليه أن يتمسك وتظهر آثار تمسكه واضحاً عليه، لنعد **أربع صفات للمتمسك بالكتاب والسنة:**

الصفة الأولى: المتمسك بالكتاب والسنة يستغني بهما عن غيرهما، فلا يعتمد منهجاً يدلّه على الحق إلا الكتاب والسنة.

الصفة الثانية: المتمسك بالكتاب والسنة يتعلم الكتاب، يتعلم السنة. وترك تعلم الكتاب والسنة والانشغال بغيرهما دليلٌ على أن الإنسان ليس صادقاً في تمسكه إنما يدعي دعوى، يكون الإنسان كاذباً إن وجدته في كل مناهج الحياة معجباً بفلان وفلان الذين سماهم الله في سورة البينة ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، كيف تدعي الاعتصام بالكتاب والسنة وقلبك مليء بفلان وفلان؟! كيف يُعجب ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ بـ ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾؟! وإن تكلمت عن حالهم في

الدنيا، فكأنك تحقق قوله تعالى في وصفهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(١) ، ويقول تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢)،
ماذا فعل الله فيهم؟ نسيتهم بما نسوا يوم اللقاء.

فالصادق يستغني بكتاب الله وسنة رسول الله عن أي شيء آخر غير
الكتاب والسنة، والمقصد: أن نستغني بهما في كل شيء يُصلح النفس أو
المجتمع، أما ما يُصلح الحضارات، فهذا حقٌّ لكل مُجد، لكن في النهاية لا بد
أن تعلموا أن من كانوا قبلنا ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾^(٣) ، ثم ماذا حصل لهم؟ هلكوا! وأبقى الله من آثارهم ما
أبقى؛ ليقول لك إنه ليس إعمار الأرض هو المقصود، بل إعمار النفس
بتزكيتها والوصول بها للنجاة، واعلم أن هذه النفس التي خلقها الله هو الذي
دلنا كيف نزكيتها. ومصدرك للنجاة هو الكتاب والسنة، فعليك أن تتعلم
الكتاب والسنة تعلمًا صحيحًا يورثك اليقين، وليس أن تحفظ الألفاظ على
لسانك وقلبك خالٍ من المعاني! الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصف هؤلاء

(١) الروم: ٧.

(٢) السجدة: ١٤.

(٣) الروم: ٩.

القوم قال: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١)، يعني يخرجون من الدين كما يخرج السهم إذا دخل مسرعاً في صيدٍ، ثم خرج من الجهة الأخرى، ولا يبقى عليه آثار، وهذا كان في الدين يصلي ويصوم ويقرأ القرآن، لا يجاوز حنجرته، فيخرج من الدين.

المقصد أن من يعتصم بالكتاب والسنة يتعلمهما كما يجب، يتعلمهما تعلماً يوصله لليقين؛ ولذلك الله -عزَّ وجلَّ- لما وصف بني إسرائيل الذين اصطفاهم في زمانهم قال: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ﴾^(٢)، اليقين بآيات الله، سواء كلام الله أو كلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

الصفة الثالثة: أنه إذا تعلم الكتاب والسنة، لابد أن تظهر له أسئلة، فعليه أن يسأل عن الكتاب والسنة، يسأل من يكون ثقة على منهج صحيح، قال الله وقال رسوله، وتظهر عليه آثار متابعة السنة، لا أن يتابع أهل

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٨).

(٢) السجدة: ٢٤.

الفلسفة، وغالب من يتكلم ولم تظهر عليه آثار السنّة، غالبًا يدخل في الفلسفة ويعتبر الدين أحد أنواع الفلسفة التي قد ينقلها للناس كما يفكر! إذا يسأل عما لا يعلم، مثلًا وهو يقرأ سورة البينة لآبد أن يقول لنفسه: "ما معاني الآيات التي سمعتها؟ ما معنى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾^(١)، مَنْ هُمْ ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾؟"، تسمع في كل السورة إلى آخرها من هُمْ ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، فهل لديك إحساس بأن المؤمنين هم خير البرية، وأي أحد آخر غيرهم هو شر البرية؟ هل هذا في عقيدتك؟

فهذا هو المقصود بقولنا إنه يجب على مَنْ يتعلم، أن يقرأ، ويفهم، وتكون لديه حالة من اليقين بما يسمعه. ثم إن لم يفهم شيئًا، فعليه أن يسأل عن الكتاب والسنة، يسأل الأحياء الذين يعلم أن لديهم علمًا، ويمكن أن يقرأ كتب العلماء الأموات مثلًا في التفسير، نفترض أنك تريد أن تفهم آية من كتاب الله، فالحمد لله كتب التفسير التي على منهج أهل السنّة والجماعة متوفرة، أصحابها موتى، لكن بإمكانك أن تستفيد منها.

(١) البينة: ١.

الصفة الرابعة: إذا سألت كن حذرًا، لا تتعدَّ في السؤال، يعني اسأل: "ما أسماء الله؟ ما صفات الله؟" لكن لا تسأل عن كيفية الصفات. تعلم عن الغيب وما في الجنة وأحوال أهل النار، لكن لا تسأل: "كيف يكون؟" فهذا الحدود تُبعدك عن الضلال، في مقابل أن أهل الباطل المشركين لما أتاهم خبر أن هناك شجرة في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(١)، قالوا بعقولهم: "كيف تكون شجرة في النار؟!" فيرون بعقولهم ويطبِقون قانون الأرض على اليوم الآخر! فيقولون: "أول شيء تفعله النار أنها ستأكل الشجرة!" الجواب: إن شأن الآخرة ليس مثل شأن الدنيا، والغيب ليس داخلًا تحت قوانين الشهادة، وما تدركه بعقلك، لا يصح أن تحكم به في الأمور الغيبية.

بهذا نفهم أنه يحق لك أن تسأل، لكن هناك حدودًا في السؤال. ما هي الحدود في السؤال؟ كل ما يزيد إيمانك وتحتاجه في العمل، هو الذي تسأل عنه، وقد ضربنا مثلًا بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، يقينًا من حديث رسول الله الصحيح، ما تحتاجه من هذه المعلومة:

(١) الصفات: ٦٤-٦٥.

أن تعلم ماذا يعود عليك نزوله؟ يعود عليك أنه يناديك...إلى آخر ما نعلم من النص. حينئذ ماذا تفعل؟ تقوم الليل، وإن كسلت فعندما تتقلب على فراشك افعل ما أمر به النبي: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا؛ اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ.»^(١) ، ففعليك أن تتفاعل مع ما تسمع، ولا تسأل: "كيف؟" لأن "كيف؟" لا تزيدك في الإيمان. إذا أسئلتنا ستدور حول ما يزيد الإيمان.

بذلك انتهينا من صفات المعتصم بالكتاب والسنة، ووصلنا إلى **الباب الخامس** وبدأنا في محاذير للمعتصم بالكتاب والسنة، قال:

(بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالبِدْعِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾)

إذا ما هو الممنوع على المعتصم بالكتاب والسنة؟ هذه الأمور التي ذكرها في العنوان:

(١) أخرجه البخاري (١١٥٤).

الأمر الأول: التعمق يعني عندما تتعلم وتساءل، من الخطأ أن تأتي إلى ما تعلمته وتعمق فيه، بمعنى تبذل جهدك لتفهم شيئاً لا يزيدك إيماناً، وقد اتفقنا على أن هذا التعمق كان في الأحاديث مثاله ما سمعناه عن علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه- في الحديث الثاني:

خَطَبْنَا عَلِيَّ عَلَى مَنبَرٍ مِنْ أَجْرِ وَعَلَيْهِ سَيْفٌ فِيهِ صَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، فَنَشَرَهَا فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبْلِ، وَإِذَا فِيهَا: "الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ عَيْرٍ إِلَى كَذَا، فَمَنْ أَحَدَّثَ فِيهَا حَدَّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا"، وَإِذَا فِيهِ: "ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا"، وَإِذَا فِيهَا: "مَنْ وَالَى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا".

ما سبب الحديث؟ سببه أن قوماً قد تعمقوا في نظرهم في عليّ -رضي الله عنه- ورأوا أن صلة القربى بينه وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- تجعل النبي يخصّه بشيء من العلم، فكان جواب عليّ -رضي الله عنه على المنبر- أن قال:

(وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ يُقْرَأُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ)، ثم نشر

الصحيفة وقال ما فيها، وهو كلام رسول الله وهو معلوم عند الصحابة.

إِذَا التعمق معناه: أن يتشدد الإنسان في تفكيره، ويخمن أمورًا ويرتبها

ويظنها ويستدل عليها! مثلما قالت النصارى في حق عيسى -عليه السلام-

وصلوا من التعمق إلى الغلو! يعني بقوا يفكرون كيف وُجد عيسى -عليه

السلام-؟ إلى أن وصلوا فقالوا: "هو ابن الله!"

ما هو المطلوب؟ لا الجهل هو المطلوب ولا التعمق هو المطلوب، لا بد أن

نضع أنفسنا في المكان الصحيح؛ لأن بعض الناس يرى نفس طلب العلم نوع

من أنواع التعمق! وطلب العلم قربة إلى الله، ولا يمكن أن تكون معتصمًا

بالكتاب والسنة إلا عندما تطلب العلم، لكن عندما تطلبه لا تتجاوز

بتفكيرك ما ورد في النصوص، مثلًا يقرأ أحدهم آيات في كتاب الله، ثم هو

يفهم من فهمه أمرًا ويرتب على فهمه أمور، وهو جاهل، لم يطلب العلم ولم

يسأل، ثم إذا أتته إجابات يقول: "عقلي لا يقبلها!" والسبب: أنه ابتداءً

بالتعمق قبل أن يتعلم.

المقصد: أن المعتصمين لا يتعمقون، لا يتشددون عندما يتعلمون.

الأمر الثاني: التنازع، من صفتهم إن تعلموا ألا يتنازعون، وهذا الأمر موجود وواضح خصوصًا عند أنصاف المتعلمين، الآن يتعلمون، هذا تعلم عند فلان وقال حكمًا، والآخر عند فلان وقال حكمًا، تجدهم عندما يلتقون يتنازعون! وهذا وصف الجهال؛ لأن المتعلم علمًا صحيحًا ينظر للدليل نظر من يراه هو الذي يدلّه، فإذا اختلف مع أحد في مسألة، عليه بالنظر في دليله، يعني هو استدل بأي شيء حتى يقرر هذه المسألة؟ فإن كان لديه دليلٌ بقي عليك أن تجمع بين الدليلين، نضرب مثالًا: تحية المسجد في وقت النهي، بعد صلاة الفجر والعصر، تحية المسجد فيها خلاف: هناك من يقول: "صلِّ وإن كان وقت نهي"، وهناك من يقول: "لا تصلِّ إن كان وقت نهي"، وكلاهما اعتمد على نفس الدليلين،

- الذي نهى عن الصلاة في هذا الوقت؛ فلأنه ورد عن النبي النهي عن الصلاة في هذه الأوقات، فرأوا أن هذا الدليل يقول: "لا تصلِّ أي شيء حتى تحية المسجد".

- الذي أباح صلاة تحية المسجد في هذا الوقت؛ فلأن النبي -صَلَّى
الله عليه وسلَّم- قال: **«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسُ حَتَّى يُصَلِّيَ
رُكْعَتَيْنِ»**^(١) فمعناه صلِّ وإن كان وقت نهي.

فكلا الطرفين أخذوا نفس الأدلة، معنى ذلك أن الأمر في هذا واسع، فلا
تتنازع مع أحد، إنما ما يجعل بينك وبين الناس تفريق: هي المسائل التي
تتصل بالعقيدة، يعني عندما يأتي من يغلو في صفات الله، فهذا لابد أن
يكون بينك وبينه حدٌّ، لكن التنازع في العلم غالبًا ما يأتي إلا من الجهال؛
ولذلك من كلام علي -رضي الله عنه-: **"العلم نقطةٌ كثُرَها الجاهلون"**، فكلُّ
يتكلم من عنده والمسألة تكون تامة الوضوح، لكن التنازع هو الذي يُذهب
ببركة المسائل، زاد هذا التنازع مع وجود الإعلام، فأصبح الإعلام بدلًا من أن
يحل المشاكل في كونه يسمعك الحق، يزيد مسألة التنازع؛ لأن هذا يسمع
هذا، وذاك مفكر، وذاك يتفلسف، وذاك يتكلم على هواه، وهذا يتكلم
بالحق. فكل واحد من هؤلاء يسمعه الناس، ففي النهاية المجالس في البيوت
أو الاجتماعات، أصبح كل فرد فيها مجادلًا عمًّا سمع، فيحصل التنازع.

(١) أخرجه البخاري (١١٦٧)، ومسلم (٧١٤).

إذا كلما زاد العلم، كلما انتفى التنازع، متى يحصل التنازع؟ عندما يكونون جهالاً؛ ولذلك تجد مسائل اتفق فيها الإمام أحمد والشافعي، والناس فيها جهالاً! ولا يعلمون قول الأئمة: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"، فيأتي الناس يتعصبون لكلامهم والأئمة بأنفسهم لا يتعصبون لكلامهم! ولكن هذا كله من الجهل.

إذا المعتصم لا يتعمق ولا ينازع ولا يصل إلى:

الأمر الثالث: الغلو، والتعمق هو الذي يوصل الناس إلى الغلو.
الأمر الرابع: البدع، المعتصم من أهم صفاته: ما يتعدى الكتاب والسنة، فلا يدخل في البدع أبدًا، يعني يبذل جهوده أن يتعلم السنة ويفعلها.
وهناك أمر في مسألة البدع وهو: **ليس كل ما لا تعلمه أنت فهو بدعة،** المشكلة أن خوفنا من البدع وصل بعض الناس إلى ظنهم أن ما لا يعلمونه يصبح بدعة! مثل حينما يأتيك حديث لم تسمعه سابقًا، فتقول: "هذا الحديث لم أسمعه من قبل!" وهذا من الأخطاء، وتقع خصوصًا من الصغار كونهم يتعجلون ويحسبون أن ما يعلمونه هو الحق، وما يعلمه غيرهم ليس بصائب! فيحصل التنازع وتبدع الناس. كلما ظهر أمر تحتاج فيه أن تتبين، اسأل أهل العلم.

نبدأ بدراسة الحديث الثالث:

• حدثنا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: صَنَعَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شَيْئًا تَرَخَّصَ وَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: "مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشِيَةً."

← هذا موقف فيه أن بعض الصحابة رأوا أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ترخَّص في أمور، يعني فعل أفعالاً على خلاف العزيمة، فكيف نظروا؟ هم تنزهوا عن ترخصه، بمعنى أنهم تركوا وابتعدوا عن ترخص النبي، فكان تركهم يعني أنهم أتقى من النبي! فهذه حالة من التعمق، فكان قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشِيَةً) يعني هناك بعض النفسيات كلما كان الأمر أشد عندها، كلما كان هذا دليل التقوى، يعني عندما يشددون على أنفسهم يعتقدون أن هذا دليل التقوى.

نعود ونقول: "هذا سببه الجهل"، الجاهل هو الذي لا يعلم سنة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فمن ثمَّ عندما يقع عليه أمر، يختار الأشد على نفسه وليس ما اختاره النبي، فهؤلاء القوم يذكروننا بحديث: «جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنِ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوبًا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي.»^(١)، هم كأنهم يتنزهون عن أفعال فعلها النبي، وكان لهم عذر في نفوسهم أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَمَنْ تَمَّ رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ مِثْلَهُ بَلْ أَكْثَرَ مِنْهُ، فَرَدَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى هَذِهِ الشُّبْهَةِ الشَّيْطَانِيَةِ فَقَالَ: (أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ،

(١) أخرجه مسلم (١٤٠١).

لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفِطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي
فَلَيْسَ مِنِّي) فسمع أصحاب النبي هذا الكلام، وعلموا أن الحق في السير على
منهجه؛ لأنه أعلمهم بالله وأشدهم خشية، وليس لأنه غُفر له ما تقدم من
ذنبه وما تأخر، يظنون أن أفعاله أقلّ من أفعالهم والمطلوب منهم أن يفعلوا
أكثر من فعله.

نعود ونقول: "المشكلة في الجهل" لأن من تعلم سنة النبي -صلى الله عليه
وسلم- واعتقد أن سنته تكفي السائر ورائه إلى أن ينجو، ما تقدم بين يدي
النبي وما تأخر، إنما يأخذ ما ورد عن النبي، فليس المقصود من الدين
التكلف ولا التعمق ولا التشدد، ولا التساهل والاستهتار! المطلوب أن ترى
النبي -صلى الله عليه وسلم- قائداً وأنت تابعٌ له، لا تلتفت عنه يمناً ولا
يسرة، ولا تتقدم بين يديه، بل من تقدم بين يدي النبي هلك، وسيأتينا ما
يدل على أن التقدم يؤدي إلى الهلاك.

• حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا وَكِيعٌ، عَنِ نَافِعِ بْنِ عُمَرَ، عَنِ ابْنِ أَبِي
مُليْكَةَ قَالَ: كَادَ الْخَيْرَانِ أَنْ يَهْلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، لَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَفَدُ بَنِي تَمِيمٍ أَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَفْرَعِ بْنِ حَابِسِ الْحَنْظَلِيِّ أَخِي بَنِي
مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الْآخَرَ بِغَيْرِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: إِنَّمَا أَرَدْتَ خِلَافِي، فَقَالَ

عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ. فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،
فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَظِيمٌ﴾
قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَكَانَ عُمَرُ بَعْدُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ
أَبِيهِ، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ - إِذَا حَدَّثَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِحَدِيثٍ حَدَّثَهُ
كَأَخِي السَّرَّارِ لَمْ يُسْمِعْهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ.

← هذه القصة تحكي موقفًا بين عمر -رضي الله عنه- وأبي
بكر -رضي الله عنه- والنبى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا ابن أبي
مليفة تابعي من كبار التابعين يحكي عن ابن الزبير هذه القصة
يقول:

(كَادَ الْخَيْرَانِ أَنْ يَهْلِكَمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ) لماذا؟ (لَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَفَدُ بَنِي تَمِيمٍ) وكان من عادة النبي -صلى الله عليه وسلم- أن كل
وفد يؤمر عليه أمير، ثم هذا الأمير هو الذي يتكلم، وكان من عادة النبي أن
يشاور أبا بكر وعمر، لكن في هذا الموقف لم يشاورهم بعد، هم أخذوا من
الموقف المعتاد أنهم يعينون أميرًا، ف (أَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسِ
الْحَنْظَلِيِّ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ) والذي يظهر أن من أشار بالأقرع هو عمر -رضي
الله عنه-.

(وَأَشَارَ الْآخَرَ بِغَيْرِهِ) يعني اختلفوا من يكون أمير هذا الوفد ليتكلم بين يدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

(فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ خِلَافِي) هذا الموقف بين يدي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

(فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ - ما كنت أريد أن أخالفك- فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) والنبي لا يكلمهم ساكت.

(فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَظِيمٌ﴾) إن رفعوا أصواتهم فوق صوت النبي؛ تحبط أعمالهم؛ ولذلك قال في أول الحديث: (كَادَ الْخَيْرَانِ أَنْ يَهْلِكَا) لأنهما كانا في مجلس النبي وحصل منهما رفع صوتهم الحسي في مجلس النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، في نقاش بينهم، وليس اعتراضًا على دين الله، بل على مسألة تخصّهم، فلما نزلت الآية.

(قال ابن أبي مليكة: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَكَانَ عُمَرُ بَعْدُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ - إِذَا حَدَّثَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِحَدِيثٍ حَدَّثَهُ كَأَخِي السِّرَارِ لَمْ يُسْمِعْهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ.) يعني كأنه يقول للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سرًا، خوفًا من أن يتقدم بين يدي النبي، ثم يحبط عمله.

هذا الخبر يقول: "إذا كانوا يناقشون مسألة لا تخص الدين، إنما تتصل بالدنيا أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورفعوا أصواتهم، وهما من هما! أبو بكر وعمر، وكادا أن يحبط عملهما! فكيف بحال الناس عندما يتقدمون بين يديّ سنة النبي؟! وكيف عندما يعترضون على الأحكام؟! وكيف عندما يفلسفون الأمور؟ وكيف عندما يسمعون خبرًا فيقولون: "إن كان النبي موجودًا بيننا، ما قال بذلك!" وكأنه -صلى الله عليه وسلم- ليس برسول من رب العالمين ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١)"

إذا كونهما تنازعا في مسألة لا تتصل بالدين أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكادا أن يهلكا، فكيف بمن يتنازع في شأن قد أقره النبي في دين الله؟! وكيف بمن يتنازع في كلام الله؟! معنى ذلك أن هذا كأنه وسُم الهلاك؛ ولذا لا يعلم العبد كيف يخرج الإيمان من قلبه! يكون الإنسان مصليًا، قائمًا، عابدًا وقارئًا للقرآن، ومع ذلك يكون فاقداً لقلبه، ولا يجده! ويكون السبب: أنه تمر عليه النصوص أو الأحاديث، فيتقدم بين يديّ النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فيهلك ويذهب قلبه. ومثل هذا كثير، يعني تجد الاعتراض

(١) الملك: ١٤.

على دين الله، تجد عدم قبول أوامر الله ونواهيه، وأحياناً حتى الأخبار التي نسمعها عن أحوال الآخرة وعمّا يكون في الآخرة، يحصل من الناس أن يتكلموا فيها بما لا يعلمون، وهذا كله تقدم بين يدي الله ورسوله وتنازع في دين الله.

إذا المعتصم حاله: أنه لا يتقدم بين يديّ الله ورسوله، بل يكون خلفهم، يرى كلام الله وكلام رسوله يقودانه للنجاة، لا يتقدمهما، والتقدم هنا يعني التقدم المعنوي، يعني: يحكم بعقله على كلام الله وكلام رسوله، يفند كلام الله وكلام رسوله على رأيه، وعلى ثقافته، وعلى رأي فلان وفلان. وهذا كله سبب للهلاك وهو خلاف الاعتصام.

نرى الآن موقفاً لعائشة -رضي الله عنها- يدل على مسألة التنازع:

• حدثنا إسماعيل، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ فِي مَرَضِهِ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ"، قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ، فَقَالَ: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ"، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَفَعَلَتْ

حَفْصَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّكَ لَأَنْتَنَ صَوَاحِبُ
يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ"، فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: مَا كُنْتُ
لَأُصِيبَ مِنْكَ خَيْرًا .

← هذه القصة بين عائشة -رضي الله عنها- والرسول -صلى الله عليه
وسلم- ثم أدخلت حفصة، في نهاية القصة قالت حفصة لعائشة:
(مَا كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكَ خَيْرًا).

الشاهد: أن عائشة -رضي الله عنها- كانت تنازع النبي في أن يقف أبو بكر
مصليًا بالناس والنبي -صلى الله عليه وسلم- مريض.

قال النبي: (مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ) وهو -صلى الله عليه وسلم- قائد
هذه الأمة والأعلم بمصلحتها والأمر بأن يصلي بالناس دليل على أن الخلافة
من حقه. هذا دليل واضح في كونه أمره على الناس.

(قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ
الْبُكَاءِ) من جهة الوصف، فهذا الوصف صحيح؛ لأنه مما عُرف عن أبي بكر
أنه رجل بكاء وإن صلى بالناس بكى، لكنها ماذا أرادت؟ صرحت في بعض
الأحاديث: أنها خافت من أن يتشاءم الناس من أول من يقف بدل النبي،
يعني يربطون موت النبي بأبي بكر، فيجدون في أنفسهم شيئاً من أبي بكر،

فخافت على أبيها، فبقيت تنازع النبي، وقالت: (فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ)، فعاد عليها النبي: (مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ)، فما توقفت عن الحيلة فذهبت لحفصة، (فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ) يعني ستتكلم عن والدها الآن، أن يأمره بأن يصلي.

(فَفَعَلْتُ حَفْصَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّكَ لَأَنْتِ صَوَاحِبُ يُوسُفَ") ما وجه الشبه؟ في كونهم يكيدون، يريدون شيئاً، فيجتمعون على الكيد، هذا ليس كما اتفق، يعني النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- متنبه لأن كلام حفصة إنما كان من تلقين عائشة.

(فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: مَا كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكَ خَيْرًا.) هنا الموقف فيه اعتراض من عائشة -رضي الله عنها- على النبي ومنازعة، والنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من رأفته ورحمته بها، أنه لم يرد عليها ردًا جافيًا، إنما كرر الأمر، لكن يكفي أن وصفهن بأنهن صواحب يوسف، دلالة على أن التنازع بين يدي النبي أمر مذموم، وهذا كله كما ترون في أمر يُعتبر يسيرًا وليس في أمر شرعي أو حكم، فكيف إن كان في حكم؟! فكيف يكون حال من اعترض وتقدم بين يدي الله ورسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

ننتقل للحديث التالي:

• حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا الزُّهريُّ، عن سهلِ بنِ سعْدِ السَّاعديِّ، قال: جاءَ عُويمِرُ إلى عاصِمِ بنِ عديِّ، فقال: أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَيَقْتُلُهُ، أَتَقْتُلُونَهُ بِهِ؟ سَلْ لِي يَا عَاصِمُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَسَأَلَهُ فَكَرِهَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَسَائِلَ وَعَابَ، فَرَجَعَ عَاصِمٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَرِهَ الْمَسَائِلَ، فَقَالَ عُويمِرُ: وَاللَّهِ لَا تَبِينَنَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَجَاءَ -وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ خَلْفَ عَاصِمِ- فَقَالَ لَهُ: "قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكُمْ قُرْآنًا"، فَدَعَا بِهِمَا فَتَقَدَّمَا فَتَلَاعَنَا، ثُمَّ قَالَ عُويمِرُ: كَذَبْتُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَمْسَكْتُمَا، فَفَارَقَهَا وَلَمْ يَأْمُرْهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِفِرَاقِهَا، فَجَرَتِ السَّنَةُ فِي الْمُتَلَاعِنِينَ، وَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "انظُرُوها، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَحْمَرَ قَصِيرًا مِثْلَ وَحَرَةٍ فَلَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ كَذَبَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَعْيَنَ ذَا الْأَيْتِينَ فَلَا أَحْسِبُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا"، فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى الْأَمْرِ الْمَكْرُوهِ.

← هذه القصة تحتاج أن نفهما جيدًا لنتصور كيف أن التعمق

والتنازع قد يُسبب للإنسان الابتلاء.

هذه القصة لها وجهان فيما يحكي الرواة:

وجه: أن عويمر، أتى إلى عاصم بن عدي، قبل أن يقع من زوجته الزنا، وسأل سؤالاً كأنه فقط من تفكيره: (أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَيَقْتُلُهُ، أَتَقْتُلُونَهُ بِهِ؟) الذي يظهر في بعض الروايات أن هذا ما حصل، إنما كان يفكر في مثل هذا، وكأنه في تعبيرنا "رجل موسوس"، فهو يفكر في المسألة ويتعمق فيها، أنه إن دخلت ووجدت مع زوجتي رجلاً وقتلته أتقتلونني؟

قال: (سَلِّ لِي يَا عَاصِمُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، -يعني عويمر طلب من عاصم أن يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَسَأَلَهُ فَكَّرَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَسَائِلَ وَعَابَ) يعني كأنه عابها من جهتين:

- عاب نفس السؤال أن يُرسل به أحد! كيف يرسل سؤالاً يخص الأعراض واتهام بالزنا، مع أحد؟
- أو يكون عاب عليه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من جهة أن افتراض أمور مثل هذه، ليس من العقل!

(فَرَجَعَ عَاصِمٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَرِهَ الْمَسَائِلَ، فَقَالَ عُوَيْمِرُ: وَاللَّهِ لَأَتَيْنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أقسم أن يأتي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَجَاءَ) للنبي في مجلسه وسأله أمام الناس! وقال نفس الكلام، فهذا السؤال فيه شيء من القباحة أمام الناس، وفيه شيء من التسرع،

فعب عليه النبي وما ردّ وانصرف الرجل، ولما انصرف في روايات أخرى أنه وجد زوجته مع رجل.

(وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ) يعني بعد انصرافه، وقع الأمر، ثم قال النبي إن الله قد أنزل فيهم قرآن، فدعاهما وحصل التلاعن، إلى آخر القصة.

شاهدنا في مسألتين:

المسألة الأولى: من التعمق السؤال عن أمر لم يقع، كأن الإنسان يتبادر به، إنما تسأل عما يزيد إيمانك أو تسأل عن أمر وقع، وتحتاج أن تعلم ما تفعله.

المسألة الثانية: كونه نازع النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني كره النبي المسألة وعابها وانصرف عاصم، فعاد مرة أخرى للنبي، وتكلم في مجلسه، وأيضاً النبي ما رد عليه. فكأنه يقال: عندما يكون العبد في أدب مع الله ومع رسوله ومع دين الله، يعطيه الله على هذا الأدب الحسنات وإصلاح الحال، وعندما يكون هناك تعدٍ وتسرع، يُخشى على العبد أن يقع عليه ما تلفظ به. إذا تُهينا عن التعمق والتنازع، إنما نسأل عما نحتاجه ويزيدنا إيماناً.

ننتقل للحديث التالي:

• حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقيّل، عن ابن شهاب، قال: أخبرني مالك بن أوس النصري، وكان محمد بن جبير بن مطعم ذكراً لي ذكراً من ذلك، فدخلت على مالك فسألته فقال: انطلقت حتى أدخل على عمر أتاه حاجبه^(١) يرفاً، فقال^(٢): هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فدخلوا فسلموا وجلسوا،

فقال: هل لك في عليّ وعبّاس؟ فأذن لهما،

قال العباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين الظالم استتبا،

فقال الرهط -عثمان وأصحابه: يا أمير المؤمنين، اقض بينهما، وأرخ أحدهما من الآخر،

فقال: اتبّدوا، أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا نورث ما تركنا صدقة".

يريد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نفسه؟ قال الرهط: قد قال ذلك،

(١) حاجبه: الحاجب: النواب. (انظر: لسان العرب، مادة: حجب).

(٢) لأبي ذر وعليه صح: "قال".

فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ: أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ ذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ،

قَالَ عُمَرُ: فَإِنِّي مُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ خَصَّ رَسُولَهُ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي هَذَا الْمَالِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:
﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ﴾ الآية، فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً
لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ وَاللَّهِ مَا اخْتَارَهَا دُونَكُمْ وَلَا اسْتَأْثَرَ
بِهَا عَلَيْكُمْ، وَقَدْ أَعْطَاكُمْوهَا وَبَثَّهَا فِيكُمْ، حَتَّى بَقِيَ مِنْهَا هَذَا الْمَالُ، وَكَانَ
النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً سَنَتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ، ثُمَّ
يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ اللَّهِ، فَعَمِلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
بِذَلِكَ حَيَاتَهُ، أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ،

ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ وَعَبَّاسٍ: أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَانِ ذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ، ثُمَّ تَوَفَّى
اللَّهُ نَبِيَّهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَغَبَضَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَعَمِلَ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ -وَأَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ- تَزْعُمَانِ أَنَّ أَبَا
بَكْرٍ فِيهَا كَذَّاءٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، ثُمَّ تَوَفَّى اللَّهُ
أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَبِي بَكْرٍ،
فَغَبَضْتُهَا سَنَتَيْنِ أَعْمَلُ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
وَأَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ جِئْتُمَانِي وَكَلِمَتُكُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ، جِئْتَنِي

تَسْأَلُنِي نَصِيْبَكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، وَأَتَانِي هَذَا يَسْأَلُنِي نَصِيْبَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا،
فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتُمَْا دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَْا عَلَى أَنْ عَلَيُكُمَْا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ تَعْمَلَانِ
فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُوْلُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَبِمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو
بَكْرٍ، وَبِمَا عَمِلْتُ فِيهَا مُنْذُ وَلِيْتُهَا، وَإِلَّا فَلَا تُكَلِّمَانِي فِيهَا، فَقُلْتُمَا اذْفَعُهَا
إِلَيْنَا بِذَلِكَ، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَْا بِذَلِكَ، أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ؟
قَالَ الرَّهْطُ: نَعَمْ،

فَأَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ، فَقَالَ: أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَْا بِذَلِكَ؟
قَالَ: نَعَمْ،

قَالَ: أَفْتَلْتُمَسَانِ مِنِّي قَضَاءَ غَيْرِ ذَلِكَ، فَوَالَّذِي بِيَاذِنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
لَا أَقْضِي فِيهَا قَضَاءَ غَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَإِنْ عَجَزْتُمَْا عَنْهَا
فَادْفَعَاهَا إِلَيَّ، فَأَنَا أَكْفِيكُمَْاهَا.

← مجمل الحديث أن عليًا -رضي الله عنه- و عمه العباس -رضي الله
عنه- تنازعا في مسألة وحكم بينهما عمر -رضي الله عنه-، وأورد
البخاري هذا الحديث هنا ليبين أن من طبيعة الناس أن يحصل
بينهم تنازع، لكن من عاد إلى الكتاب والسنة وجعلها هما الحاكمان
عليه، يقف عندهما.

يعني حصول التنازع في العلم أمر ممكن، لكن المطلوب حال حصول التنازع: أن يقف الناس عند دين الله ويسألون ويستفتون ولا يتحول الأمر إلى عداوات؛ لأن التنازع في الدين، يجعله الشيطان أداة تشتعل في قلوب الناس؛ فيصلوا للعداوة بينهم، لدرجة أن في الأمة الإسلامية وصل الحال في بعض العصور، وحتى العصور القريبة أقل من ٥٠ سنة، إلى أن الجماعة الذين هم أتباع المذهب الحنبلي يصلون في جهة، وأتباع المذهب المالكي يصلون في جهة أخرى، وأتباع المذهب الحنفي في جهة أخرى، وأتباع المذهب الشافعي في جهة أخرى! حتى أتى الملك فيصل -رحمه الله- وجمعهم على إمام واحد، ومثل هذا كان موجودًا في ديار المسلمين إلى عهد قريب، لماذا هذه العداوات؟! هل هذه العداوات كانت بين الأئمة أنفسهم الذين كانوا يقولون: "الدليل هو مذهبي"؟ لا، إنما بين الأتباع الذين يتنازعون في العلم.

إذا الشيطان يتخذ التنازع في الدين والعلم وسيلة لزرع العداوات بين المسلمين.

نسأل الله أن ينجينا من وسواس الشيطان، ويجعلنا من أهل السنة والجماعة، اللهم آمين!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللقاء الثاني عشر

بَابُ إِثْمٍ مَنْ أَوَى مُحَدِّثًا

بَابُ مَا يُذَكَّرُ مِنْ ذَمِّ الرَّأْيِ وَتَكْلُفِ الْقِيَاسِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن نكون ممن جلس هذا المجلس المبارك، مجلس صدق، ويجعلنا ممن قام عنه مقام صدق وأن يجعل لنا من لدنه سلطانًا نصيرًا.

كنا قد ابتدأنا في مناقشة موضوع الاعتصام بالكتاب والسنة، وتدارسنا هذا الموضوع المهم من كتاب البخاري، حيث أن البخاري في كتابه الصحيح المشهور جعل كتابه مجموعة كتب، بدأ بكتاب **بدء الوحي** وانتهى بكتاب **التوحيد**، وفي أواخر كتابه الصحيح أتى بهذا الكتاب وهو كتاب **الاعتصام بالكتاب والسنة**، أراد به مناقشة أمر مهم للناس من أن أتى النبي الكريم إلى أن تقوم الساعة، وهو **طريق النجاة** فإن طريق النجاة على الحقيقة هو الاعتصام بالكتاب والسنة.

كلمة **الاعتصام** فيها من المعاني الكثير، وأهم شيء أنها موجودة في كتاب الله، والاعتصام أمر أمرنا به، نعبد الله بالاعتصام وبمناقشة مسألة الاعتصام؛ لأن الله في كتابه قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ واعتصموا: هذا فعل أمر. وهذا من أظهر أنواع الأوامر؛ أن يأتي الأمر بفعل أمر. ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ أي: اعبدوا الله بالاعتصام بالكتاب والسنة. وهذا ليس أمرًا اختياريًا، من يعبد الله، يعتصم بالكتاب والسنة، والاعتصام واضح جدًا في معنى حروفه؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، يعني المعتصم مُدَّ له بحبل من السماء وهو يتمسك به؛ ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَمَتَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١) فمن اعتصم به نجا. إذا الاعتصام عبادة في نفسه وأيضًا هذه العبادة تأتي من وراءها النجاة، يعني ليس مجرد عبادة -وكل العبادات لها مصالح- تُصلح نفسك ومآلك، لكن هذه العبادة بالذات أثرها على الإنسان أنه ينجو عندما يلقي ربه ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

(١) أخرجه ابن حبان (١٢٢).

هناك أوصاف للمعتصم بكتاب الله -كما اتفقنا-:

الوصف الأول: يستغنى بالكتاب والسنة عن كل شيء.

عندما يريد أن يفهم شيئاً في الحياة عن نفسه، أو عن الناس، أو عن الواقع الماضي أو المستقبل، لا يحتاج أكثر من أن يقرأ في كتاب الله، مثلاً عندما يريد أن يعلم **من أين أتى الناس؟** يقرأ في كتاب الله، ويقرأ أول قصة أتت في القرآن: أن الله خلق آدم بيده -سبحانه وتعالى- وأسجد له الملائكة، يعني لسنا بحاجة للكلام عن نظرية دارون وأن الإنسان تطور ولا أنه كان خلية حقيرة ثم أصبح قرداً ثم آدمي! لأنك بمجرد أن تفتح القرآن تجد أول قصة هي قصة خلق آدم وإسجاد الملائكة له، فأنت لست بحاجة للتخبط، ثم أصبحت من سلالة من ماء مهين.

ثم إلى أين المصير؟ يأتيك الخبر أن الناس يفترقون، وهناك صالحون وفاسقون، وأننا سنلقى ربنا وأننا إليه راجعون.

فتعلم من أين أتيت وإلى أين المصير، ثم **ماذا يجب عليّ أن أفعل في الوسط؟** سيكون الأمر واضحاً، لا تحتاج من أحد أن يقول لك: "اذهب يمنة" أو "اذهب يسرة"، أنت تعلم من أين أتيت، وكيف كرمك الله وأسجد الملائكة لأبيك، وأن عدوك الشيطان، وتعلم كل التفاصيل وإلى أين ستذهب

ومن الناجي ومن الهالك، **كيف تزكي نفسك؟** وصفت لك نفسك: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

إذا تسمع في القرآن أن أوصافنا أننا شحيحون، وتسمع عن عجلنا ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(٢) فنعالج هذه المسألة، يعني من أنت؟ ما صفاتك؟ ماذا يجب أن تفعل لتزكي نفسك وتطهرها وتكون أحسن الناس وتصل؟ كله في كتاب الله، تريد أن تربي أبناءك، اقرأ مثلاً في كتاب الله سورة لقمان تجد مرادك، تريد أن ترى كيف يعامل الأبناء آباءهم عندما يكونون على طريق غير المستقيم، اقرأ ماذا فعل إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه في كل القرآن، وعندما حاوره في سورة مريم.

إذا كل ما تريد موجود في كتاب الله، لكن الأمة مصابة بالكسل، بمعنى أي أحد يأتي ببرامج جاهزة لتطوير الذات وإصلاح المجتمع والتربية، نقوم بعملية الاستيراد لها، ويصح أن تستورد شيئاً تصلح به الأرض، أو تستورد جوالاً، أو كمبيوتر، لكن عندما نصل عند النفس، لا يصلحها إلا ما أتى في كتاب الله وسنة رسوله.

(١) الحشر: ٩.

(٢) الأنبياء: ٣٧.

إذا أول صفة نكرها على أنفسنا إلى أن تدخل أعماقنا، إلى أن نتحرك تجاهها: **أن المعتصم مستغن بالكتاب والسنة عن غيرهما**، لابد أن نحقق حديث رسول الله: **«ليس منا من لم يتغن بالقرآن»**^(١). قال البخاري: **"يتغنى: يستغني"**، فمن يتغنى بالقرآن، يستغني به عن غيره، يعني تشعر أنك في كفاية من كل شأن، لست بحاجة لاستيراد أفكارًا تُصلح بها نفسك أو مجتمعك أو أبناءك أو اقتصادك.

وإذا بدأت بالاستغناء، فهو مشاعر يلحقها عملٌ، **ما هو العمل؟ التعلم**، تستغني بالقرآن إذا كلما احتجت، تعلمت كتاب الله وسنة رسوله. إذا الوصف الثاني للمعتصم: **يتعلم كتاب الله وسنة رسوله**.

الوصف الثالث: **يتعلم الكتاب والسنة اقتداءً بسنة رسول الله**، يعني عندما تنظر للنصوص لا تتعالم ولا تفتي نفسك، عندما تنظر للنصوص لا تتعالم، بل افهم مثلما فهم السلف الصالح، بمعنى: عندما نقول في سورة الفرقان: **﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾** فهذه أمنية المفترض أن نشترك فيها جميعًا؛ لأن كل من تكون له إمامًا، يكون في ميزانك، وخصوصًا النساء لابد

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧).

أن يكونوا للمتقين إمامًا؛ لأن أبناءهن وأحفادهن وقرابتهن، هنّ بالنسبة لهم إمام، وما تنقشه المرأة في السنوات الأولى من عمر الأبناء، يجعلها عبارة عن إمام، وقد نقل البخاري كلام مجاهد فقال: "أئمةً نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا؛ بنا من بعدنا." يعني لا نخترع! بل نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا؛ ولذا مثلًا تريدان أن تصوّمي ابنتك أو ابنك في رمضان، فتقرئين في السنّة أن الرّبيع بنت مَعوذ، هذه امرأة من الصحابيات، كانت تُلهي صغارها حتى يأتي وقت الإفطار؛ لتدرّبهم على الصيام. إذا لك في هذا التدريب سابقة، وهكذا تفتشين وتفتشين حتى تجدي ما تريدين.

مثلًا نسمع عائشة -رضي الله عنها- تقول: "أقبلت فاطمة تمشي كأنّ مشيتها مشي النبي صلى الله عليه وسلّم، فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: «مَرَحَبًا بابنتي.»^(١)" ، «مَرَحَبًا بابنتي» هذه الجملة جميلة من كلام رسول الله، وإن قلتها، تكونين تابعت ما قاله رسول الله -صلى الله عليه وسلّم-.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٣، ٣٦٢٤).

كان من كلام النبي إذا طلب منه شيء، أن يقول: «أَبَشِرُ»^(١)، إذا عندما نتكلم بهذه الكلمة وتكون لنا سابقة فيها، ستكون مشاعرنا تجاهها غير حينما تكون من كلامنا. وبهذا نكشف عن أنفسنا الجهل بتعلم السنّة.

الشاهد: أن من اعتصم بالكتاب والسنة، بذل كل جهوده في تعلم الكتاب والسنة، وعندما يتعلمهما لا يعطيها معنى من عنده، بل يتعلم مقتدياً بمن سبقه.

الوصف الرابع للمعتصم: لا يتعدى في الأسئلة حتى يصل إلى التعمق أو الغلو أو التنازع في الدين!

عندما يتعلم السنّة، من المؤكد ستظهر له أسئلة كما مر معنا، من حقه أن يسأل، لكن المهم أن يكون هذا السؤال يزيد الإيمان. لا تتعدّد في الأسئلة حتى تصل إلى التعمق، إلى الغلو والتنازع في الدين! هذه ليست أسئلة صحيحة ولا في مكانها، بل اسأل ما يزيدك إيماناً، مثلاً قرأت في سورة الكهف وسمعت عن أخبار الفتية الذين آمنوا برهبهم وزادهم الله هدىً، هذه فائدة عظيمة تعلمتها، أن هؤلاء قاموا فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)،

(١) عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: "كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَارِلٌ بِالْجِعْرَانَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ بِلَالٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: أَلَا تُنَجِّزُ لِي مَا وَعَدْتَنِي؟ فَقَالَ لَهُ: أَبَشِرُ.

(٢) الكهف: ١٤.

يعني نظروا لأدلة الربوبية؛ فأمنوا برهم بدون رسول، بل وصلوا بالفطرة السوية بالإضافة للآيات الكونية، ثم حصلت حادثة الكهف...إلى نهاية ما ورد في السورة، ثم ترك كل هذا وتساءل: "أين كانوا؟ ما أشكالهم؟ ما أسمائهم؟!" هذه الأسئلة لا فائدة لها في الإيمان، ثم يأتي من يجيبك فتقول له: "لكني سمعت شيئاً آخر!" وندخل في نزاع ليس له داعٍ، وهذا مثال بسيط وهناك الأخطر والأصعب من هذا!

إذاً في القرآن والسنة نتعلم كما أتتنا النصوص وكما فهمها السلف الصالح، ونسأل لا مانع من السؤال، خصوصاً أن البخاري وهو يعقد (بابُ الإقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-). أورد كلام ابن عون: **(ثَلَاثٌ أَحِبُّنَّ لِنَفْسِي وَإِلِخْوَانِي، هَذِهِ السَّنَةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ)**، إذا مسموح لك أن تسأل، لكن لا تتعدَّ في السؤال ما يوقعك في التنطع، في الغلو، في التعمق.

كان هذا آخر نقاشنا في الباب الخامس، سنبدأ الآن في **الباب السادس**.

بَابُ إِثْمِ مَنْ آوَى مُخَدِّثًا رَوَاهُ عَلِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

• حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عاصم، قال:

قُلْتُ لِأَنَسٍ: أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ مَا بَيْنَ

كَذًا إِلَى كَذَا، لَا يُقَطَّعُ شَجَرُهَا مَنْ أَحَدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ عَاصِمٌ: فَأَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: أَوْ أَوْى مُحَدَّثًا.

← أولاً نرى علاقة الباب بالسابق وسيظهر مباشرة علاقته
بالاعتصام.

اسم الباب السابق: بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْعِلْمِ وَالْغُلُوِّ فِي
الدِّينِ وَالبِدْعِ. البدع تسير معنا للباب التالي وهو بَابُ إِثْمٍ مِنْ أَوْى مُحَدَّثًا.
سيأتي كلام عن إثم -ليس إثم من أحدث في الدين بل- من أوى محدثًا،
لنتصور خطر الإحداث في الدين سواء كان الناتج من البدع أو الناتج من
التنازع أو التعمق أو الغلو، هذه الأشياء لها نتائج، الكلام في الباب التالي
ليس عمن فعل الغلو أو التعمق أو البدع، بل الكلام عمن أوى من يفعل
هذه الأمور! لنرى إلى أي درجة المسألة خطيرة، وعلاقتها بالاعتصام واضحة،
هل المعتصم بالكتاب والسنة يتعمق في الدين أم يأخذ من دين الله كما أتى؟
يأخذه كما أتى، هل المعتصم يخترع ويبتدع ويرى نفسه مُشْرِعًا؟ الجواب: لا،
ولذا انظر الآن أصبح الابتداع أمرًا يسيرًا جدًا نتيجة وجود وسائل الاتصال،
عندما يأتي أحد يريد أن يشجع أحدًا على طاعة أو عبادة، النيّة جيدة، لكن

لا تنفع النية أصحابها دائماً، فيخترع قصة أو أجراً على الفعل، بمعنى أنه حديث وينشره بين الناس على أن هذا أجر من سبح، أجر من صلى، ولم يثبت في الكتاب والسنة، فيفكر الناس في أن هذا لا بأس به لأنه أجر! نقول: لا، المعتصم بالكتاب والسنة يرى أن النبي قد أكمل الرسالة، لا يوجد باب من أبواب الأجر يوصل لله ولرضاه إلا وقد دلّنا عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، المراد من البدعة هو اتّهام النبي واتّهام الله بإنقاص الدين.

المشكلة ليست فقط فيمن اخترع، بل فيمن أوى المخترع، من هو الذي أوى المخترع اليوم في وسائل الاتصال؟ من يقول مثلاً: "انشر تؤجر!" فينشرون في مجموعاتهم فيكونون كمن أوى مُحدِّثاً في الدين، هي ليست بالضبط لكنها خطيرة، أن ينشر الإنسان ما يعلم أنه كذبٌ على رسول الله، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: «**وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»^(١)، هذا معناه أن من يأتيه شيء لابد أن يتأكد هل هذا من كلام رسول الله أو لا، إذا كنت لا تملك قدرة على التحرير، إذن لا تنشر، نشر الباطل هو الإشكال، عندما تنشر الباطل تصور عندما يُقال:

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١).

"إن فعلت كذا سيكون لك أجر كذا" معناه أنه يتكلم عن الله ويحكم أن الله سيفعل كذا كذبًا و زورًا، لأبد أن تتصور ما هو بُعد التعدي على رسول الله وعلى الله، وسيأتينا خطر الكلام على الله بلا علم.

نقف عند **بَابِ إِثْمِ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا**، الباب السابق بيّن أن هناك من يحدث في الدين بسبب التنازع في الدين، التعمق، البدع، الغلو، يحدث الإحداث، في هذا الباب سنناقش من آوى هذا المحدث، قال: **(بَابِ إِثْمِ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا؛ رَوَاهُ عَلِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)** يقصد بها حديث: «لعن الله من آوى محدثًا»، ثم أتى بحديث آخر قال: **(حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ، حَدَّثَنَا عَاصِمٌ، قَالَ: قُلْتُ لِأَنْسٍ: أَحْرَمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ؟)** ما المقصود بحرمة مكة أو المدينة؟ يعني أن هذه القطعة من الأرض حرّمها الله، بمعنى أن هناك عدة أمور ممنوعة فيها تعظيمًا لها، وتحريمها من تحريم إبراهيم -عليه السلام-، يعني أن هذه الأمور حرّمت وقتما بنى إبراهيم البيت، والمدينة حرّمت من تحريم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قال: **(نَعَمْ، مَا بَيْنَ كَذَا إِلَى كَذَا، يَعْنِي مَنْطِقَةً لَا يُقْطَعُ شَجَرُهَا مَنْ أَحَدَتْ فِيهَا حَدِّثًا -يعني في المدينة- فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**. هذا

على نفس الفاعل الذي أحدث، قَالَ عَاصِمٌ: (فَأَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: أَوْ آوَى مُحَدِّثًا). يعني لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من؟ على اثنين، على المحدث وعلى من آوى محدثًا.

من هو المحدث؟ المحدث يشمل الظالم، والجاني، والمفسد في الأرض. مثلًا أحداث الإرهاب يأتي شخص يعتدي على المسلمين ثم يأتي أحد من قرابته، أو من صحبته، أو من يرضى بفعله ويخبئه، فاللعن يأتي على من أحدث بالقتل مخالفًا للسنة، وعلى من آواه وخبأه أو ساعده، الاثنان يدخلان في اللعن، لماذا الاثنان يصبحان في حكم واحد؟ لأن من رضي عن الفعل كأنه فاعل، وإن لم يشارك في الفعل.

هذا بالنسبة للإحداث بهذه الجرائم، لنرى الذي يحدث البدع في الدين، يأتي من يحدث بدعة في الدين، بمعنى أنه يخترع شيئًا لم يكن موجودًا في الدين، فأنت لست مخترعًا، لكنك تشاركه في الاختراع، أو تنشره أو تنشر كتبه مثلًا، فيصبح إثم هذا النشر كإثم من فعله تمامًا؛ ولذلك لا بد من الحذر من نشر الفكر الذي لا نعلم صحته، مثلًا: يأتي من يستعمل أدلة الكتاب والسنة على باب من أبواب الفلسفة، فيلوي عنق النصوص ليستدل على أشياء فلسفية، يقوم بتقديم دورة مثلًا في البرمجة اللغوية،

فنعلن له ونساعده على نشر موقعه، هذا يُعتبر نوعًا من أنواع الإيواء؛ لأن الناس يقبلون المنكر والبدعة عندما تنتشر، فيعتقدون بسبب الجهل أنها شيء من الدين، فنكون بهذا مشاركين في البدع.

الشاهد أن من آوى محدثًا فكأنه فعل فعل المحدث، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. الحديث يتكلم عن المدينة خاصة والعلماء قالوا: "المدينة خاصة لعِظْمها، لكن هذا الحكم عام"؛ ولذلك قال في البداية: (رَوَاهُ عَلِيٌّ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَعْنُ اللهِ مِنْ آوَى مُحَدِّثًا) هذه الجملة تدل على أن من آوى محدثًا حكمه على الإطلاق في أي مكان، ثم أورد الحديث في المدينة للدلالة؛ لأنه كلما عظم شرف المكان كلما كان الإحداث فيه أعظم؛ ولذلك عندما تذهب للحرم وتجد الناس يطوفون، ومعنى الطواف أن يوحدوا الله، فتجدهم ينادون غير الله! ومناداة غير الله شرك أكبر! لكن كونها في بيت الله وعند باب الله تصبح المسألة أعظم من كونها خارج بيت الله، وإن كانت في كلا الحالتين عظيمة؛ فمن أجل ذلك لا بد من عدم الإيواء وأيضًا هناك خطوة لا بد منها على أقل تقدير وهي الإنكار القلبي للبدع والمحدثات، وقد اتفقنا على أن ليس كل ما لا تعلمه يعتبر بدعة، فلا بد أن تسأل من تثق فيه من أهل العلم ويُجيبك أنها لم ترد في السنّة لتحكم أنها

بدعة؛ لأننا قد نكون جاهلين بسنة النبي، فنأتي نقول على السنة إن بدعة نتيجة جهلنا، لكن عندما تتأكد من كلام العلماء الثقة أنها بدعة، لابد على أقل تقدير -لتخرج من هذه الآثام- أن تبغضها وتبغض فاعلها وتبغض ظهورها وتبذل جهدك ألا تكون موجودة ولا تنشرها؛ حتى تبتعد عن إثم من آوى محدثاً.

سيأتي الباب التالي يقربنا من مسألة كيف يمكن أن يكون الإحداث:

بَابُ مَا يُذَكَّرُ مِنْ ذِمِّ الرَّأْيِ وَتَكْلُفِ الْقِيَاسِ

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: لَا تَقُلْ^(١) ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٢)

• حدثنا سعيد بن تليد، حدثني ابن وهب، حدثني عبد الرحمن بن شريح وغيره، عن أبي الأسود، عن عروة قال: حج علينا عبد الله بن عمرو فسمعته يقول: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: "إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً، ولكن ينزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون."

(١) قوله: "لا تقُلْ" عليه صح، وليس عند أبي ذر.

(٢) الإسراء: ٣٦.

فَحَدَّثْتُ^(١) عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو حَجَّ بَعْدُ، فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي، انْطَلِقْ إِلَى عَبْدِ اللهِ فَاسْتَثْبِتْ لِي مِنْهُ الَّذِي حَدَّثْتَنِي عَنْهُ، فَجِئْتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَحَدَّثَنِي بِهِ كَنَحْوِ مَا حَدَّثْتَنِي، فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَأَخْبَرْتُهَا، فَعَجِبَتْ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ حَفِظَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو.

← نبدأ باسم الباب، باب: مَا يُذَكَّرُ مِنْ ذِمِّ الرَّأْيِ وَتَكْلُفِ الْقِيَاسِ.

فيما سبق سمعنا عن المتعمقين، المبتدعين، المتنازعين، وسمعنا أن من أوى هؤلاء، عليه إثم، هنا سمعنا عما يُذكر في ذِمِّ الرَّأْيِ وَتَكْلُفِ الْقِيَاسِ، يعني كأنه يُقال: التنطُّع، التعمق، التنازع في العلم، البدع، ما مصدرها في الأساس؟ مصدرها الرأي وتكلف القياس. سيأتينا معنى تكلف القياس، أضرب مثلاً لنتصور كيف يمكن للإنسان أن يدخل في هذا الباب بدون أن يعلم: عندما يأتي أحد يرى أن الطواف في الصحن قصير، ويرى أن الطواف في الأعلى على مدار الدور الثاني كاملاً، فيقول: "لا يمكن أن يظلمنا ربنا ويكون من يطوف الطواف بالأعلى سبعة أشواط وبالأسفل سبعة أشواط! أكيد المسافة الأكبر يكفي لها فوق شوطاً واحداً"، فقام بقياس الأمتار! هذا

(١) لأبي ذر وعليه صح.

جهل، وهناك من يشبه هذا في التفكير، يأتي من يقيس المسائل على بعضها، فيساويها كأنها معادلة! ويخرج بحكم من عنده، ويتكلم على الله بلا علم! وتأتي المسألة التي لا نشعر بخطورتها نتيجة قلة نقاشها. الآن نرى كم أن الشرك خطير، وضررنا مثلاً عن خطورة الشرك وخطورة كيف ينادى غير الله، لكن في كتاب الله، الله جعل القول عليه بلا علم أعلى من درجة الشرك، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) قال أهل العلم: "إن هذه الآية رتبت المحرمات من الأدنى للأعلى"، حرم الفواحش والأعلى منها: الإثم والبغي، والأعلى هو: الشرك والأعلى منه: القول على الله بلا علم. لماذا القول على الله بلا علم يعتبر أعلى منه؟ لأن فيه الشرك وأعلى، من يتكلم كأنه يُوقَّع عن الله، يقول: "بهذا أمر الله، وعن هذا نهى الله". فكأنه إما جعل نفسه مُشرِّعاً بدلاً عن الله أو مُشرِّعاً مع الله! فعندما نتكلم في دين الله بلا علم، معناه أننا وقعنا في إثم عظيم؛ ولذا عدم وضوح خطورة التعامل وخطر القول على الله بلا

(١) الأعراف: ٣٣.

علم؛ نتیجته أن الناس أصبحوا یفتون فی أي أمر، وحتى فی الحرم تأتي هذه المسألة فتجد أن أحدهم یسأل أي أحد ویستفتیه ویعمل بناءً على هذه الفتوى بدون علم! إذا القول على الله بلا علم فی دین الله إثمہ عند الله عظیم ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ إلى أن تصل إلى ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، أي شيء لا تعلمه، لا تقله على الله، ولا تقس، تأتي مسائل كما یحصل فی الحج مثلاً تكون طلبت فتوى فی مسألة، ثم رأیت شخصاً بجانبك أخطأ خطأً شبيهاً فتقول له: "لا تحتاج أن تسأل، فهذا يشبه هذا!" وتفتیه بدون علم! وأصبح الحج مجلساً للفتاوى النسائية والرجالية! صغار وكبار، كلهم يتكلمون فی دین الله، وقد نجد بعض الناس عندما یرمون الجمرات - وهذا یتكرر كثيراً- أن يُعجلوا الرمي فی اليوم الثاني عشر، یرمون الجمرات الصغرى والوسطى والكبرى، فيؤصّي النساء بعضهم أن یرموا جمرة اليوم الثالث عشر! وكل سنة يُعاد هذا الأمر، كيف تُشاع هذه الفتوى؟! هذه الفتوى ليس لها أي أصل فی أي كتاب من كتب العلم! وفي مجالس النساء تتناقل نفس الأخطاء وكل هذه الأفعال من القول على الله بلا علم!

الشاهد أن الجرأة على الكلام فی الناس، وفي الأمور الخاصة التي تخصنا، وفي الكلام فی الأمور العلمية، وفي الطبخ، وفي غيره، كل هذا تُنهي عنه، تُنهي

أن تتكلم بغير علم، لكن عندما نصل للدين تأتي الجريمة، وتصور كيف أن القول بلا علم يُعتبر جريمة، مثال: أنت تريد الذهاب للمطاف وتساءل أحدهم عن طريق المطاف فيبعدك عن الطريق! على الأقل المفترض أن يقول لك: "لا أعلم" لتسأل غيره، هذه الأخطاء في القول بلا علم حتى في الأمور العادية، قد يموت البعض بسببها! قد يصف البعض أدوية أو أعشابًا قد تؤثر على الإنسان سلبيًا! هذه كلها تصبح سياسة وثقافة، وهذا كله يُعتبر هَيِّئًا في مقابل الكلام في دين الله! هذا دين الله إن سكتنا عن التنبيه على خطورة القول على الله بلا علم، فسيكون هناك دين آخر؛ ولذا انظر إلى الفلسفة الآن في كل مكان، كل من اشتهى الكلام، سواء كان صاحب علم أو لا، أو ظهرت عليه آثار الاستقامة أو لا، يخرج ويتكلم في مقاطع ولا تعلم من أين أتى كلامه؟! يقول مثلًا: "من الخطأ أن تقول في دعاء الاستفتاح: وتعالى جَدُّك"، لماذا؟ لأنه فهم أن كلمة "جدّ" تعني: الأب والجد! كيف ونحن نقرأ في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ جدّ بمعنى: المجد، فلا تتكلم إن كنت لا تعلم، وقس على هذا، فكل يوم يخرج جاهل باللغة وبالدين وبالقواعد الشرعية وبأمور كثيرة، ويخرج بفتاوى وأمور ما أنزل الله بها من سلطان إلى أن يصبح دين الله دينًا مختلفًا.

المقصد: يجب أن تأخذ العلم من أهله، وليس من أي شخص تقابله، حتى لو فسّر لك آية أو قرأ لك حديثاً، لا يشترط أن يكون له فقه في المسائل الفقهية، مثلاً عندما تنزل في الحرم تجد مكاناً للفتاوى، اسأل أصحاب العلم منهم وكن مطمئناً لأن الدولة هي التي عينتهم وهم فقهاء خصوصاً في الأمور التي تحصل في الحرم من الطواف والسعي وغيره، لكن الذي يحدث هو خلاف ذلك! لماذا؟ أنت إذا أردت الطبّ فستذهب لأحسن طبيب، فكيف بطبّ الدين، وطب القلب؟! لا بد أن تتوجه للأحسن، لكن لماذا يترك الناس المفتي ويذهبون لغيره؟ إما لسهولة الوصول إليه، أو ليقول كلاماً مختلفاً، وكلاهما خطأ.

قال: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ قال البخاري: "معنى ﴿لَا تَقْفُ﴾ أي: لَا تَقُلْ"، وهذا ورد أيضاً عن ابن عباس.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ معناها ألا نتكلم إلا عندما نكون متأكدين من أن ما نقوله صحيح، وهذا في شأن الدين أو الدنيا؛ لأنه كما اتفقنا ثقافة، أي طريقة في العيش، فإن أخطأت فيها فستخطئ في كل شيء، في دين الله وغيره.

ثم أورد الحديث، ونرى ما علاقة الحديث بهذه المسألة التي هي ما يُذكر من ذم الرأي وتكلف القياس، الرأي يعني لا يعلم مطابقتها لأدلة الكتاب والسنة ولا القياس على أصول القياس.

هذا حديث عن عروة قال: (حَجَّ عَلَيْنَا أَي: مرّ علينا حاجًا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ") هذا الحديث سببه: أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سُئِلَ عن زوال العلم ورفعته، فلما قال لهم النبي إن العلم يُرفع، أتى أعرابي وقال: "كيف يُرفع العلم والقرآن بين أيدينا ونقرؤه؟" فأجاب النبي بما يُبين أن حالنا يشبه حال اليهود والنصارى، فكتبهم موجودة لكنهم مع تحريفها لا يستعملونها، ومع تحريفها توجد فيها دلالة على صدق رسول الله، وحتى مع تحريفها في أصلها يوجد فيها ما يدل على أصول في دين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-! لكنهم ليس لهم علاقة بكتبهم. فالمعنى أن الكتب تبقى ويزول العلم، والسبب؟ السبب يشبه السبب الذي نتداوله دائمًا، فهم «يقرأون القرآن لا

يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ»^(١)، و «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(٢)،
يعني أن هناك قراءة واهتمامًا بالكتاب، وأنتم ترون أن مدارس التحفيظ
اليوم على مستوى العالم الإسلامي أصبحت أضعاف ما كانت عليه في
السنين الماضية، لكن انظر لحال المسلمين! التدهور واضح، وما السبب؟
يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم.

معناه أن العلم لا تُنتزع كتبه، بل يُنتزع من يفهم هذا العلم؛ ولذلك قال
النبي -صلى الله عليه وسلم- : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ
انْتِرَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ
يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ)، ليس العلم نفسه الذي يُرفع،
بل يموت العلماء وطلبة العلم، عندما يموتون سيموت العلم معهم، وهناك
مصيبة أخرى وهي أن يبقى جُهَّال -أهم شيء ألا نكون نحن هؤلاء الجهال؛
لكيلا ندخل في الحديث دون أن نشعر- يُستفتون فيفتون بغير علم،
والنتيجة أنهم يضلون أنفسهم ويضلون الناس؛ ولذلك تجد كثيرًا ما يُلمَّع
شخصيات في الإعلام لسنين والناس يستفتونهم، ثم يذهبون ويأتي غيرهم!

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٨).

(٢) أخرجه أحمد (١١٥٧٩).

لدرجة أن كثيرًا من هؤلاء يُخدمون من جهات خارجية، وتُصرف عليهم أموال من أجل أن يخرجوا للناس، ويُلمِّعونهم حتى تكون لهم صورة ويقبلهم الناس ويستفتونهم، فيفتوهم بغير علم، ثم يذهبون ويأتي غيرهم، ويشعر بهم من هم على المنهج، يعني من يعلم روح الكتاب والسنة؛ ولذلك كان حذيفة يقول: "إن على الحق نورًا." فمشاعرك تجاه الأشياء ليست كافية، لكن على الأقل إن لم يوجد من يدلنا، علينا أن نستجير بالله من أن نتبع أحدًا بنفسه ضالًا ويضلنا ورائه.

إذًا هذا موجود وحاصل ومُخطط له، وكما أن هذا كله حاصل، كذلك العلم والطلب ومحبة العلم ونشره موجود كثيرًا -الحمد لله-، ومن شواهد هذا المجلس -نسأل الله أن يجعله مجلس علم وخير وبركة-.

الشاهد من الحديث واضح وهو: أن في آخر الزمان لن يُنزع العلم من جهة الكتب، وإنما يموت العلماء، وبأن يأتي بدلًا عنهم من يتكلم برأيه بدون علم. بعد ذلك هناك تعليق على الحديث، يقول عروة: (فَحَدَّثْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو حَجَّ بَعْدُ) يعني في السنة التالية، (ومرّ عليهم حاج فقالت: يَا ابْنَ أُخْتِي -يعني عروة- انطلق إلى عَبْدِ اللَّهِ -وعبد الله كان معروفًا برسوخه في العلم والعمل- فَاسْتَثْبِتْ لِي مِنْهُ

في قوله هذا الَّذِي حَدَّثْتَنِي عَنْهُ، فَجِئْتُهُ فَسَأَلْتُهُ -وهذا دليل على أن عائشة خائفة من هذه الحال- فَحَدَّثْتَنِي بِهِ كَنَحْوِ مَا حَدَّثْتَنِي -يعني كأنها تريد أن تتأكد من أن هذا الحديث صحيح، وسيحصل في الأمة ويُنتزع العلم بموت العلماء، وهي كانت ترى العلماء أمامها يموتون- فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَأَخْبَرْتُهَا، فَعَجِبْتُ - يعني ذهب لعبد الله بن عمرو وسأله عن الحديث، وقال له مثلما قال سابقًا- فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ حَفِظَ عَبْدُ اللَّهِ بِنُ عَمْرٍو -ومرّ معنا أن عبد الله بن عمرو من كبار الصحابة الذين حفظوا سنة النبي وقد ظهر عليه علمًا وعملاً؛ ولذا نضع لأنفسنا مقياسًا: مَنْ سَنَأَخَذَ مِنْهُ الْعِلْمَ، يَجِبُ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ الْعِلْمِ عَمَلًا، عَلَى قَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ وَاللَّهُ يُوَفِّقُنَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ!

نأتي للحديث الثاني في الباب:

• حدثنا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا أَبُو حَمْرَةَ، سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ هَلْ شَهِدْتَ صِفِّينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَسَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ يَقُولُ. ح وَحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، لَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَرَدَدْتُهُ، وَمَا

وَضَعْنَا سَيْوْفَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا إِلَى أَمْرِ يُفْظِعُنَا، إِلَّا أَسْهَلَنَ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ غَيْرَ
هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: شَهِدْتُ صِفِّينَ، وَبِئْسَتْ صِفُّونَ"

← هذا الحديث نفهمه جملة جملة.

هذا حوار بين الأعمش وأبي وائل، أبو وائل مُخْضَرَم، بمعنى أنه أدرك النبي ولم يره، سئل: (هَلْ شَهِدْتَ صِفِّينَ؟) قال: (نعم، فَسَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ) هو أبو ثابت الأنصاري، وهو صحابي بدري، وشهد أحدًا، وشهد مع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - البيعة حينما كانوا في الحديبية، فسهل ابن حنيف ماذا يقول؟ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ) بمعنى لا تحكموا برأيكم على الدين، لكن متى قال هذا الكلام؟ قاله عندما كان في جيش عليّ -رضي الله عنه- وقصة التحاكم معلومة، عندما قُتل عثمان وقتله الخوارج، ثم طالب معاوية -رضي الله عنه- بدم عثمان وكان من قتل عثمان في جيش علي، وعليّ -رضي الله عنه- أراد ردّ الفئة الباغية بمعنى التي اعتدت على أن يضعهم تحت السلطان، ثم يأخذ حقهم من القتلة، ودخلوا في قتال، وفي هذا اليوم -الذي هو صفين- يقول بعدما دخلوا في قتال أرسل معاوية -رضي الله عنه- "أن نتحاكم إلى القرآن ويتوقف القتال." وصل الخبر لعليّ وقبيل أن يتوقف القتال حفاظًا على المسلمين ويتحاكموا إلى كتاب الله، في هذا الوقت

أتى الخوارج الذين خرجوا على عليّ -رضي الله عنه-، وقالوا قولاً قال عنه عليّ: **"إنها كلمة حق أُريد بها باطل"**، قالوا إنهم يريدون أن يحكموا بكتاب الله، لا حكم إلا لله، فقال عليّ: **"إنها كلمة حق أُريد بها باطل"**، هم يريدون بها أن لا يتحاكمون إلى الكتاب بل يخرجون ويقتلونهم، فأتى سهل بن حنيف واعظاً لهم، يعني علي -رضي الله عنه- عندما أراد الخوارج الخروج أرسل لهم الصحابة يخاطبونهم حتى في رواية ابن عباس يقول: **"إنه أتى على خيامهم في الليل"** يقول: **"لهم دويّ في قراءة القرآن كدويّ النحل"** لكن هؤلاء هم الذين وصفهم الرسول بقوله: **«يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم»** فما قبلوا طاعة علي -رضي الله عنه- فأتاهم سهل بن حنيف يقول لهم: **(يا أيها الناس)** أي الخوارج الذين ما رضوا بالتحاكم **(يا أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم)**. يعني لا تحكموا برأيكم على رأي علي -رضي الله عنه- **(لقد رأيته يوم أبي جندل)** من أبو جندل؟ أبو جندل هذا الذي حصل له موقف وقتما كتب النبي -صلّى الله عليه وسلّم- الصحيفة مع المشركين وأقروا بأنه إن أتى أحد من المسلمين من مكة ما يقبلونه، فأتى أبو جندل وهو مكبل والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- لم يتم بعد كتابة الصحيفة، فأصر المشركون على ردّ أبي جندل، فسهل بن حنيف يقول: **(لقد رأيته يوم أبي جندل ولو أستطيع أن**

أَرَدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَرَدِّدْتُهُ) يعني عندما قاس بعقله قال: "الصحيفة ما انتهينا منها، وقد وصل إلى معسكرنا، فكيف نرده إلى الكفار؟ ثم لماذا نقبل بذلك، ويمكننا قتالهم؟" لكنه يقول: (اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ.) يعني في ذلك اليوم كان يرى أنه إن استطاع ردّ أمر النبي لردّه، لكن عندما امثلوا الأمر وانقادوا له، بعدها سعى الله صلح الحديبية فتحًا، وانتشر الإسلام بعدها وأتت خيرات كثيرة إن قيست بالعقل، ما كان لعقل أن يأتي بها، فيقول لهم سهل بن حنيف: (اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ.) المسألة ليست كما ترونها.

الآن سيصف الموقف قال: (وَمَا وَضَعْنَا -يعني بعدما استقرت أمورهم وبدؤوا يحاربون في عهد عمر وأبي بكر- سَيُوفِنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا إِلَى أَمْرٍ يُفْظِعُنَا -يعني أمر نخاف منه- إِلَّا أَسْهَلَنَ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ) بمعنى أنهم في كل مرة يقاتلون، يقاتلون الطرف الثاني المشرك والكافر، فيبدؤون بالأمر الصعب وعندما يدخلون يأتهم العون من الله إلا هذا الموقف (غَيْرَ هَذَا الْأَمْرِ.) يقصد صفين. لماذا؟ لأنه أمر مُشكّل! إذا نظروا إلى معاوية قالوا: "أتى ليأخذ دم ابن عمه!"، وإذا نظروا لعلي قالوا: "سلطان يريد أن يفرض سلطته!"، فالأمر مُشكّل، فكان الأصح ألا يكون للإنسان رأي.

(قَالَ: وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: شَهِدْتُ صِيفَيْنِ، وَبِئْسَتْ صِفُونًا.) يعني يذمها.

الشاهد من هذا الكلام: أنه ليس شرط أن يكون لنا رأي في كل أمر، خصوصًا في المسائل المتصلة بدين الله، غير صحيح كلما حصلت حادثة من الحوادث الواقعة عند الناس الجديدة أن أقول: "رأي كذا؟" الرأي اهتمه على دين الله، النوازل التي تنزل على المسلمين سواء في بلدانهم أو ما يخص أعمالهم، هذه تحتاج إلى علماء يفتون فيها، وليس نحن ونحن جالسون على أريكتنا! وأنتم ترون الناس كلما حصلت نازلة كتبوا تغريدات وكتبوا معلومات وآراء كأنهم في كل شيء يفهمون! وهذا دليل على أن المسلمين وصلوا إلى الخروج من حديث: «**مَنْ حُسِنَ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرَكَّهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»^(١)، هناك أمور كثيرة لا تعيننا، لكن نجد أنفسنا مع وسائل التواصل الاجتماعي نقول: "كيف يكتب كل الناس وأنا لا أكتب ولا أتكلم؟! فيقولون رأيهم في كل شيء إلى أن يصلوا للدين ويتكلمون برأيهم فيما لا يفقهون!

من أجل ذلك المعتصم لا يدخل بآرائه في دين الله ولا يقس المسائل.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧).

اللقاء الثالث عشر

بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُسْأَلُ مِمَّا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَيَقُولُ:

"لَا أَدْرِي"، أَوْ لَمْ يُجِبْ حَتَّى يُنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَلَمْ يَقُلْ بِرَأْيٍ وَلَا بِقِيَاسٍ

بَابُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ

لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمَثِيلٍ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

نحمد الله حمداً طيباً مباركاً ونسأله بمنه وكرمه كما يسر لنا الاجتماع
حول سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يجعلنا من أهل الشرب من حوضه
-صلى الله عليه وسلم- وأن نكون محفوظين بمتابعة السنة ولا تزل أقدامنا
في البدعة، نسأل الله -وهو الحفيظ- أن يحفظنا بحفظه وذرائعنا والمسلمين
اللهم آمين!

كنا قد جلسنا هذا المجلس المبارك **لمناقشة كتاب الاعتصام بالكتاب
والسنة** من صحيح البخاري، وكررنا ولازلنا نكرر أهمية مسألة الاعتصام
خصوصاً اليوم، كل ظاهرة ظهرت حولنا -خصوصاً الظواهر الشاذة التي

فيها غلو- مثل ظاهرة الإلحاد من جهة وظاهرة الإرهاب من جهة أخرى، إنما مرجعها لعدم الاعتصام بالكتاب والسنة، والمشكلة في مسألة الاعتصام بالكتاب والسنة أنها دعوى تدور على السنة الناس كلهم، يعني كل المسلمين الذين يشهدون بأن لا إله إلا الله ومحمدًا رسول الله، دعواهم أنهم من أهل الاعتصام بالكتاب والسنة، ودائمًا يقولون: "منهجنا الاعتصام بالكتاب والسنة" وكنا اتفقنا أن دعاوى وحدها لا تكفي، فإن أهل النفاق صفتهم في كتاب الله أنهم أهل دعوى، حتى أن الله عندما وصفهم في سورة البقرة، وصفهم بأنهم يدعون أنهم مصلحون، والله يقرر عنهم أنهم ﴿هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)، لا يشعرون أنهم مفسدون لهذه الدرجة وصل الخداع! ولذلك يوم القيامة عندما يأتي الموقف العظيم ويجتمع المسلمون والمنافقين في الحشر، يشبهوا بعض في مبدأ المسألة وهذا من خداع الله لهم لأنهم كانوا يعيشوا على خداع الله ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢). من مواقف الخداع يأتي موقف يوم القيامة، يوم القيامة يُحشر المؤمنون والمنافقون سويًا في مبدأ المسألة، وفي مبدأ

(١) البقرة: ١٢.

(٢) البقرة: ٩.

المسألة كأن المنافقين معهم نور ويصلون لمكان معين فيُطفأ نور المنافقين ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ يعني من جهة المؤمنين ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ﴾ من قبل المنافقين ﴿الْعَذَابُ﴾^(١) يأتي المنافقون وينادون المؤمنين ويقولون: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾؟ يعني نشهد شهادتكم وندعي دعوتكم، يعني نقول: "نحن معتصمون بالكتاب والسنة" ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أما من جهة أنكم تدعون، فالأمر كما ذكرتم، كنتم معنا في صورتكم الخارجية ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ معناها أن الاعتصام بالكتاب والسنة ليس مجرد دعوى، والله عالم الغيب والشهادة، يعني الكذب عليه ما يخسر فيه إلا صاحبه؛ لأن الله مطلع على ما في قلوب الخلق، والمشكلة أن الإنسان يدعي دعوى ويكررها على نفسه إلى أن تأتيه لحظات يصدق دعوته! وهذا واضح في سورة المجادلة عندما وصف الله المنافقين، كيف كانوا في الدنيا يحلفون للنبي ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾^(٢) كانوا يذهبون للنبي وهم يتسارون ويتناجون لخراب أهل الإسلام هم واليهود، وعندما يصلون عند النبي -صلى الله عليه وسلم-

(١) الحديد: ١٣.

(٢) المنافقون: ٢.

يحلّفون، بقوا على هذه الحالة في الدنيا، متخذين أيمانهم جُنّة، ويحلّفون أنهم مع المؤمنين ويريدون الصّلاح، إلى أن ماتوا على تلك الحالة إلى أن بُعثوا، ولَمَّا لاقوا الله يحلّفون له ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾^(١)، يعني بقي الكذب على الله وعلى رسول الله وعلى أنفسهم يجري في دماءهم حتى عندما لقوا ربهم ظنوا أن هذا الكذب يكون مع رب العالمين!

ولذا دعوى الاعتصام بالكتاب والسنة كل الناس كل يدعونها، لكن لا بد من أدلة تدل على أن العبد معتصم بالكتاب والسنة، ولا بد أن نعلم أنه لا نجاة ولا فلاح ولا بقاء على الصراط المستقيم ولا شرب من حوض النبي الكريم إلا لمن اعتصم بالكتاب والسنة، والاعتصام بالكتاب والسنة هو الدين؛ ولذا لا بد أن نعلم أن اعتصامنا ليس أمرًا زائدًا بل نحن مأمورون به في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

مرّ معنا أدلة تدل على أن هذا العبد معتصم بالكتاب والسنة، وكررنا هذه الأدلة، وكان من أهمها على الإطلاق:

(١) المجادلة: ١٨.

- أن يكون العبد مستغنياً بالكتاب والسنة عن غيرهما. لا يفكر ولا يحكم إلا بما ورد في الكتاب والسنة.
- ثم يأتي وراء الاستغناء تعلم الكتاب والسنة.
- وإذا تعلمهما سأل عنهما.
- وإذا سأل كان عنده حدود في هذا السؤال.
- ثم أتت صفة مهمة من صفات المعتصم وهي أنه لا يتكلم على الله بلا علم. يعني المعتصم بالكتاب والسنة لا تجده يتكلم في دين الله إلا بما علم من دين الله.

إذا كان لا يعلم إما أن يبحث ليتعلم أو يحوّل هذا السؤال لأهله، أهم صفة من صفات المعتصم بعد استغنائه وتعلمه ألا يتكلم في دين الله إلا بما يعلم؛ ولذلك من أخطر الذنوب وهي في درجة الشرك أو تكاد تكون أعلى من الشرك هي القول على الله بلا علم، وهذا علمناه من آية سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال أهل العلم: "هذه الآية بدأت بالأدنى إلى الأعلى"، أعلى الذنوب على الإطلاق أن تقول على الله بلا علم، وهذا الذنب اليوم بالذات بابه

مفتوح، نرى وسائل الاتصال سهّلت على الناس أن يتكلموا ويفتوا في دين الله بما لا يعلمون وبجراحة! أصبح الأمر يسيراً لأنه في الزمن الماضي أهل القرى كان غالبيتهم لا يقرؤون والذي يقرأ فيهم هو إمام المسجد، فهو الوحيد الذي قد يتكلم والباقي لا يقرأ فيسمعوا، لكن اليوم فشت القراءة فأصبح الناس يظنون أنهم لو قرؤوا الأحكام لأصبحوا عالمين بها! وهذا ليس صحيحاً فإن مجرد القراءة لا تدل على العلم، والأمثلة على ذلك كثيرة والخلط كثير في هذا الباب، وليس هذا المجلس فرصة لذكر أمثلة، لكن إن فكرتم ستجدوا أمثال هذا كثيرة في وسائل التواصل، وصل بهم الحال إلى أن يحكموا على الأمر خطأ أو صواب، من آرائهم، حتى أن الأمر لم يتوقف على مجرد قدرتهم على القراءة بل تعلموا مهارات منها مهارة القراءة السريعة، فطبقوها على كتب أهل العلم وعلى كلام رسول الله، يعني تصور ليس فقط يقرؤون بل يقرؤون سريعاً، فماذا يُنتظر منهم؟! قد قال الله في حق كلامه: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وأمره ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١) فلتفهمه لا بد أن تتهياً له بأن تقوم الليل وتقرؤه وتكرره لتبلغ فهمه، ليس أن

(١) المزمل: ٤-٥.

تقرؤه سريعًا! أو تكتفي بمجرد قراءته! وهذا كله له شواهد كثيرة في الحياة فإن سألنا أحد: ماذا تعلم عما تحفظ، قل بجملة مفيدة ما معنى اسم الصمد؟ بجملة مفيدة ما معنى اسم الله؟ ما معنى السلام المؤمن المهيمن؟ نجد أنفسنا رغم تكرار هذه الكلمات علينا، بل هذه الأسماء العظيمة لله، وها نحن بعد كل صلاة نقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ»^(١)، لكن نكتفي بالإجابة بالمعنى العام! ما دمت أنا جاهل واكتفيت بمعرفة المعنى العام، إذًا عليّ أن أقف عند حدودي! لا أتكلم في دين الله، عندما تُسأل: "ما معنى الصمد؟" تدور وتدور لتشرحه! هذا يعني أنك لم تقرأ فيه؛ فقف مكانك، اعلم أين أنت في دين الله، فلا ينبغي لك أن تكون لا تعلم ومع ذلك تتكلم! إذًا الكلام في دين الله ليس بالأمر اليسير، وكما اتفقنا من أخطر الذنوب، ويكاد يكون أخطر من الشرك؛ لأنه مع الأيام إن تكلم في دين الله هذا وذاك، أصبح هناك دين جديد غير دين الله؛ والسبب: أن كل واحد يأتي من عنده بكلام.

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٣).

كنا أمس تكلمنا في هذا وتدارسنا **الباب السادس** (بَابُ إِثْمِ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا) و (بَابُ مَا يُذَكَّرُ مِنْ ذَمِّ الرَّأْيِ وَتَكْلُفِ الْقِيَاسِ) واتفقنا على حديث النبي: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ» إلى هنا علمنا أن العلم سيقبل بسبب قبض العلماء، إلى هنا توجد مشكلة؛ ولذا لا بد من التعلم وبذل الجهد وكل من يجد في نفسه فرصة سانحة أو قدرة لطلب العلم فليغتنم ذلك فإن الدنيا تذهب وعلومها ولا يبقى في ميزان العبد إلا ما فعله لله خالصًا، المشكلة ليست هذه فقط لأنه كما سيتبين لنا أنه ستبقى طائفة بعد ذلك في الأحاديث معها الحق، المشكلة في الطرف الثاني، أنه عندما يموت العلماء لا يذهب الناس ويبحثون عمن يعلمهم، بل في نفس الأماكن التي مات فيها العلماء يخرج جهال، فيبدأ الخطأ من عند الناس، وقرأنا أمس ذلك: «يَبْقَى نَاسٌ جُهَالٌ يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ» الخطأ من الطرفين: ممن صدّروا أنفسهم للفتيا، ومن الناس الذين كان عليهم أن يختاروا من يسألونه بعناية. واليوم لا عذر لأحد أن يسأل أي أحد، لأن كل هذه وسائل الاتصال سهلت أن يصل لك من يقول لك: "هذا دينك"؛ فاجتهد من أجل أن تتعلم، وهناك وسائل كثيرة

تصل بها لأهل العلم، ومن استغاث بالله أغاثه، ومن طلب من الله أن يدلّه دله وقرب له العلم.

معنى ذلك أن الخطر على الأمة يكون بنزع العلم بموت العلماء من جهة، والجهة الأخرى الخطيرة، أن يحل الجهال محل هؤلاء العلماء.

ثم أتانا الحديث الثاني الذي فيه كلام سهل ابن حنيف، وسهل ابن حنيف ممن حضر صفين، وكان يكلم الخوارج الذين خرجوا على عليّ أبي طالب ويقول لهم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ" وذكرهم بالموقف الذي كان بين سهل بن حنيف والنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما كانوا في الحديبية، كانوا في موقف يشعرون أنهم في قوة، يشعرون أنهم إن قاتلوا قريش سيقتلونهم، يشعرون أن الأفضل ألا تكتب الوثيقة بينهم وبين قريش، وشروط الوثيقة التي في الحديبية كأنهم رأوها تظلم المسلمين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أقرها ووافق عليها، وهم وقع في قلوبهم أنها ليست في صالحهم؛ ولذلك سهل ابن حنيف يقول لهم: "لَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَرَدَدْتُهُ" لكنه لم يفعل ذلك والصحابة لم يفعلوا، بل إنهم أطاعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإن كانوا قد أطاعوه على مضض، كما في القصة أن النبي -صلى الله عليه وسلم-

رأهم ما تحللوا من العمرة، فدخل على أم سلمة وأشارت عليه أن يخرج فيحلق شعره فإذا رأوه سيفعلون، يعني هم سينقادون، لكن في قلوبهم حرجًا من ذلك، فهو يقول: "اتهموا آرائكم على دين الله." لماذا؟ لأنهم في ذلك الموقف كانوا يرون رأيهم خيرًا من رأي النبي، ثم دارت الأيام ودخل العرب في الإسلام وقويت شوكة المسلمين، ثم أتى القتال والمسلمون ظهورهم قد أمّنت، لكن إن دخلوا القتال وظهرهم لم تؤمن من العرب، فما كان النصر لهم.

الشاهد أن في قبول النبي لصلح الحديبية خيرًا كثيرًا، رغم أن العقل في أول الأمر يقول: "لا خير فيه."؛ ولذا من كلام علي بن أبي طالب: **"لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه"**^(١) يعني إن حسبنا أن رأينا يقول إن الوضوء والمسح من أجل النظافة، وهذا الخف له ظاهر وله باطن، الباطن متصل بالأرض والظاهر أعلى منه، أيهما أكثر قذارًا؟ الباطن، فإن كنا نفكر بالرأي أن نمسح الأكثر وسخًا لكننا مسحنا أسفله، لكن الشرع يأمرنا أن نمسح أعلاه، لماذا؟ هذا الشرع، فأنت ماذا تفعل؟ تقف عند

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢).

الشرع، ونفكر، لو كان الوضوء للنظافة، لما كنا عندما نفقد الماء للوضوء نتييمم بالتراب! بذلك نكون على طرفي نقيض وكلاهما يدخلك الصلاة، لكن الدين ليس بالرأي، شيء أبعد من تفكيرنا ونحن عندما نعتصم ونمثل الأمر، نرى آثاره ذلك الطيبة ونجد عقلنا قد أُرشد إلى أسرار لا يمكن أن نعرفها بمجرد النظر الأول. هل هذا يعني أن الدين يناقض العقل؟ لا، الدين يعلم العقل ما لا يستطيع إدراكه من ظاهر المسائل، مثلاً النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «الْحَمُّ الْمَوْتُ»^(١) الحمى: أخو الزوج. يعني هذا دخوله على المرأة أخطر من أي أحد آخر، تأتي المرأة بعقلها تقول: "أنا دخلت عليه وهو صغير، وأنا مثل أمه..."، هذا الكلام تقوله ولا تعلم ماذا في كوامن هذا الشاب الذي كبر ولم يتزوج! فكونك تحكم على الأمر من ظاهره، هذا من جهلك، أنت لا تعلم كوامن الذين حولك، بغض النظر عن هذا المثال، كم مرّت علينا مواقف مع أناس كنا نظن خيريتهم، ثم تأتي مواقف فيُفتضح ما بداخلهم، والشريعة تأمرك أن تسير في الطريق المستقيم، أنت لا تستطيع

(١) أخرجه مسلم (٢١٧٢).

أن تحكم على داخلك! نفسك تتقلب عليك، فكيف تستطيع أن تحكم على من حولك؟!

إذًا في كل هذه المواقف نقول: "الدين يدل العقل على الطريق المستقيم، يدل على الحقائق، وليس يمنعه من التفكير." تعلمون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «اعقلها وتوكل»^(١). يعني اربطها. فالعقل هو الذي يمنعك من الوقوع في الخطأ. ما هو الخطأ؟ ما هو الصواب؟ الخطأ والصواب الشرعية تقوله لك، ثم العقل يأتي إلى الخطأ الذي قررتَه الشريعة فيمنعك، وإلى الصواب الذي قررتَه الشريعة فيدفعك، هذا العقل، فالعقل لن يكون مرشدًا إلا إذا كان هناك قاعدة يُرشد عليها. والعرب تقول: عقال. من العقل هو الشيء الذي يربط الشيء من أن ينفلت. يعني عقولنا مانعة لنا من أن نقع في الخطأ، ما الذي يُقدّر أن هذا خطأ وخطر وما الذي يقدر أن هذا صواب وصلاح؟ الشرع، وانظر عندما تكونين أمًا ولديك طفل، لا يعلم أن آخر هذا الممر سيسقط، لماذا؟ لأنه جاهل، لكن عندما يخاف أو تمنعه يبتعد. إذًا الشرع أتى من علام الغيوب سبحانه وتعالى، فيعلمك من أجل ألا

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧).

تقع، فالعقل يمنع نفسه عندما يأتي الخطأ والخطر، والعقل يدفع نفسه عندما يأتي الفلاح.

إذاً العقل ينمو مع الشرع ويفسد مع الهوى، العقل هو بنفسه دوره أن يعقلك، يمنعك، أو يدفعك، إما يقوده الهوى يعني اللذائذ أو يقوده الشرع، فإن قاده الهوى وقع في المصائب، وإن قاده الشرع وقِف عند الصواب.

لنرى كل ما أمرت به الشريعة، هل يمكن لإنسان عاقل أن يأتي لأي شيء أمرت به الشريعة ويقول: "ليتها ما أمرت؟! الفطرة السوية التي هي عقل الإدراك ترى أن الإحسان إلى الوالدين خيرٌ. أن الإحسان للفقراء خيرٌ، ترى أن شرب الخمر وزوال العقل شرٌّ. إذاً مرر كل شيء وستجد أن العقل السليم من الهوى يقول: "لا يوجد أمر أمرت به الشريعة، ينكره العقل الخالي من الهوى، ولا أمر نهت عنه الشريعة ويقول عنه: ليتها ما نهت عنه!" من -مثلاً- يفرح بالمعاملات الربوية؟ ليس المحتاج -وهم الفئة الأكبر-، بل القلة ممن لديهم مال وعندما يُقرضونه يأخذون عليه، وإن احتاجوا سيكرهون الربا، يعني متى يُحب خلاف الشريعة؟ عندما يدخل الهوى ولذلك عندما يأتي من يقول: "نحكّم العقل." نقول له: "العقل أداة مانعة أو دافعة وإما يحكمها الشرع أو يحكمها الهوى." ولذلك لا يمكن أن يحصل تعارض

بين العقل والشريعة لأن كل ما في الشريعة لا يوجد عقل خاوٍ من الهوى ويقول: "ليته ما أمر به!" إن أتينا مثلاً لموقف قطع يد السارق، طالما ليس بيتي هو المسروق وليست أموالي التي جمعتها طوال عمري، أقول: "حرام ومسكين!" عندما يكون بيتي هو المسروق تكون مشاعري تجاه السارق ليس فقط أريد قطع يده، بل توجد مشاعر أكبر من قطع اليد! لكن الشريعة ما أتت وفق هذا التطرف ولا ذاك، فتخيل المسألة إن كانت بالعقل، هذا بيت سُرق وبجانهم جيرانهم، فوقع في قلوبهم الرعب، فأصبحوا يريدون أن يفعلوا به الأفاعيل! ثم سكان الحي سمعوا بالسرقه فخافوا، فتمنوا لو أمسكوه فقطعوا يده، لكن ماذا تكون مشاعر من يسكن في آخر المدينة؟ يقول: "قد يكون السارق مسكيناً ومحتاجاً!" هذا لأنه بعيد عن الحدث، معنى ذلك ستبقى العقول متأثرة بالهوى والشريعة لم تأتِ موافقة للهوى، إنما أتت موافقة لمصالح الناس أجمعين، فلا يغرك أن يقال -مثلاً-: "قتل القاتل وقطع يد السارق جريمة وخلاف الإنسانية!" إن كان المقتول له صلة بالمتكلم، ستكون مشاعره تجاه القاتل فظيعة، وإن كنا بعيدين لن نتأثر! فالشريعة لم تأتِ وفق هوى الناس وإنما أتت لتضبط أحوالهم.

إذا ممنوع أخذ الدين بالرأي وممنوع التكلم في القياس، المطلوب منا أن نمثل الشرع وما نتكلم بهوانا، ولا يكون هناك تعالم وهي قضية خطيرة. نبدأ **بالباب الثامن** الذي يدل على أن هذا كان مسلك النبي الكريم، يعني ترك الكلام في الدين بغير علم كان مسلك النبي الكريم، وهو من بلغ الوحي وهو خير من يجتهد وخير من ينظر للأمر ومع ذلك سننظر كيف كان موقفه

بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُسْأَلُ مِمَّا لَمْ يُنَزَّلْ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَيَقُولُ: "لَا أَدْرِي"، أَوْ لَمْ يُجِبْ حَتَّى يُنَزَّلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَلَمْ يَقُلْ بِرَأْيٍ وَلَا بِقِيَاسٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: سُئِلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الرُّوحِ فَسَكَتَ حَتَّى نَزَلَتْ.

• حدثنا عليُّ بنُ عبدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الْمُنْكَدِرِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: مَرِضْتُ فَجَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعُودُنِي وَأَبُو بَكْرٍ وَهُمَا مَاشِيَانِ، فَأَتَانِي وَقَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ، فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ صَبَّ وَضُوءَهُ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ

- وَرَبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: فَقُلْتُ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ - كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي؟ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي؟ قَالَ: **فَمَا أَجَابَنِي بِشَيْءٍ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ.**

← نبدأ بالعنوان (بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

يُسْأَلُ مِمَّا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ الْوَحْيُ - يعني يسأل سؤالاً ولم يكن الوحي قد

نزل به - فَيَقُولُ: "لَا أُدْرِي")

يعني (لا أدري) أو كلمة تشبهها، مثلاً حينما أتى جبريل - عليه السلام - للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسأله في الحديث الطويل عن الساعة، فقال له: «**ما**

المسئول عنها بأعلم من السائل»^(١) معنى هذا الكلام أنه لا يدري، كأنه يقال:

إذا كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وله ما له من الشرف والوحي ينزل عليه،

وهو أهل للاجتهاد ومع ذلك يقول: (لا أدري) فمن باب أولى كل أحد غير النبي

عندما يكون في موقف مثل هذا لابد أن يقول: (لا أدري). فكان له موقفان

مما لم ينزل به الوحي:

- إما أن يقول (لا أدري).

- أو لا يجيب حتى ينزل عليه الوحي.

(١) أخرجه مسلم (٨).

إما يجب تصريحًا بأن هذا لا يعرفه، أو يقول: "قم حتى ينزل الله فيك وحيًا" وهذا يشبه موقف المجادلة عندما أتت للنبي وبقيت تجادل النبي حكم زوجها، كما في مطلع سورة المجادلة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ فأخذت تشكي إلى الله حالها وحال أطفالها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول لها: "ليس عندي شيء". كان من المعلوم عندهم أن الظهر أن يقول الرجل: "أنت عليّ كظهر أمي" كأنه طلاق، فأنت تشكي وتجادل النبي في الحكم يعني تقول له: "هذا حالي وحال أطفالي إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن أخذهم ضاعوا..." فأخذت تجادل النبي وتشتكي إلى الله والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن بيده شيء إلى أن نزل حكم الظهر وكفارته. معنى ذلك أن النبي الكريم لم يكن يحكم حتى تحت ضغوط هذه العاطفة، إذًا هذا مسلك من عظم الشريعة أنه لا يتقدم بين يدي الله ولا رسوله. هذا في حال النبي، وبالنسبة لنا في أحوالنا فالأحكام قد فرغ منها وحُكم فيها، فإن كنت لا تعلم الحكم، فلا تتكلم فيه، لأن الكلام الذي نقوله نتيجة الجهل يُوقع الناس في حرج في دينهم أو يتساهلون ويفعلون أفعالًا تخالف أمر الله، أو يعتقدون اعتقادات باطلة في الله، في أسمائه، في صفاته، في أفعاله، وهذا حال أهل البدعة كما تعلمون.

كأنه يقال إذا كان هذا حال النبي، فمن باب أولى تكون أحوالنا ألا نتكلم فيما لا نملك دليلاً عنه. وكنا في الباب السابق نقول: "ولا حتى نقيس المسائل." سأضرب مثلاً لتتصوروا القياس أو عدم المعرفة: يأتي من يقول لك إنه أتى معتمراً ومرّ بالطائف -قبل السيل الكبير- ودخل إلى الشقة وأحرم وعندما مرّ على السيل الكبير الذي هو مكان الإحرام لم يُحرم ولم يتذكر. ما الحكم في المسألة؟ أنت تقيس وتقول: "ما دمت قد مررت على الميقات ولم تحرم منه، إذاً أنت لم تحرم!" وهذا الكلام ليس صحيحاً؛ لأن الميقات الحد الأخير الذي يُطلب من الإنسان ألا يتعاده إلا وهو محرم، لكن إن أحرم قبله ودخل في النسك وإن عُرض عليه الطيب ما تطيب مثلاً فالإحرام يصح، لكن هؤلاء قاسوا وقالوا لا يصح له، وهذا غير صحيح، فعلينا ألا نفتي بل ننتظر قول أهل العلم، لا يصحّ أن تتعلم معلومة وتضعها وتقيس كل المسائل عليها! بل كل حالة لها فتواها، وهذا بالضبط مثل علاج بعض الأمهات عندما يصاب الطفل في بطنه يُعطون الأبناء نفس الدواء! كأن كل أمراض البطن لها نفس العلاج! وهذا فساد لعلاج البدن يشبهه فساد علاج القلب.

علينا أن نضع أنفسنا في المكان الصحيح ولا نتعالّم ونتكلم إلا بما نعلمه ولا نقيس المسائل على بعضها، والحمد لله العلماء متوفرون، خصوصاً في

مكان مثل هذا المكان العظيم، الإحرام، النسك...الأكشاك كثيرة التي فيها العلماء، يُشكل عليك مسألة أسأل مباشرة، ولا تسأل أي أحد في طريقك، بل اسأل من وُضع للسؤال لأن به تبرأ الذمة، فلا بد أن نحفظ ديننا من جهة ونحفظ الناس الذين هم أمامنا؛ لأنه في الحديث السابق يأتي أقوام جهال يقفون للفتوى والناس يسألونهم فتقع المشكلة من الطرفين.

معنى ذلك ما دام أن النبي كان يقول: (لا أدري) أو يسكت، فمن بعده من باب أولى، وهذا لا يوجد فيه أي نوع من الحياء ولا فيه تقليل من شأن الإنسان أبدًا، بل النبي -صلى الله عليه وسلم- عُتِبَ في بعض المسائل لما وقع منه اجتهاد، مثل لما عُتِبَ على أسرى بدر؛ لأنه رأى -صلى الله عليه وسلم- أن يبادلهم بالمال فعُتِبَ على ذلك ونزل الأمر بقتلهم. إذاً يمكن أن يجتهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ويُعَاتَبَ على اجتهاده، فإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد يُعَاتَبَ على اجتهاده -مع علمه بالله وبالشرع- فنحن لابد أن نعلم مكاننا وهذا يمنعنا من الوقوع في الخطأ في حق أنفسنا وفي حق الله.

قال: (لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾). هذه الآية في سورة النساء مطلعها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾^(١) إذا تحكّم بين الناس بأي شيء؟ هل برأيك؟ لا، ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

(وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: سَأَلَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الرُّوحِ فَسَكَتَ حَتَّى نَزَلَتْ) كما تعلمون في الحديث وقد مرّ معنا في كتاب الاعتصام أن اليهود مرّ عليهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسألوه عن الروح، فسكت النبي حتى نزلت الآية، معنى ذلك أن النبي لا يتكلم في دين الله إلا عندما ينزل عليه الوحي. ثم أتى بشاهد وفيه موقف لجابر بن عبد الله، لما دخل عليه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يعوده في مرض، ظن جابر أنه يموت فيه، ولما دخل عليه كان جابر قد أغمي عليه، فتوضأ النبي وصب وضوءه عليه فأفاق، وهذا في حق النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهذا التبرك بالوضوء خاص بالنبي وليس لكل أحد.

قال جابر: (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي؟ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي؟) ظن أنه مرض الموت (قَالَ: فَمَا أَجَابَنِي بِشَيْءٍ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ) وفي

(١) النساء: ١٠٥.

آية الميراث أتى بتكرار قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾؛ إِذَا
الفتوى لله. أمر خطير! فلا بد أن نضع أنفسنا في مكانها الصحيح.

بهذا اتضح لنا ما يزيد بيان اللقاء الماضي، أننا علينا ألا نقيس ولا نتكلم
برأينا، لأنه قد تحدث مواقف ونقيس فيها بناء على علمنا، مثلاً نرى الرجال
في المسعى يهرولون ونحن نعلم القصة، أن هاجر كانت تهرول ما بين الصفا
والمروة، ليس قصدها العبادة إنما قصدها البحث عن الماء، فنقرر بأنفسنا
أن الهرولة ليست خاصة بالرجال، بل ونحن أيضاً والدليل بالقياس أن
هاجر هي أول من هرول! ويحدث الفساد! وهذا المقصود بالقياسات
الفاسدة، أنك تعلم معلومة فتقرر وتفكر وتحلل! ونحن نصف أنفسنا أننا
أذكىء، فاهمون...! والحمد لله هذه نعمة الله علينا أننا نفهم، لكن المطلوب
منا أن نفهم كلام الله، نبذل جهودنا في فهم كلام رسول الله، يعني القوة
والطاقة في الفهم ليست لتحليل المسائل على رأينا، بل لفهم كلام الله
ورسوله والالتزام به. نأتي للباب التاسع:

بابُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ مِنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِمَّا عَلَّمَهُ
اللهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمَثِيلٍ

• حدثنا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْإِصْبَهَانِيِّ عَنْ أَبِي
صَالِحٍ ذَكْوَانَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ الرَّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ
نَفْسِكَ، يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، فَقَالَ: "اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمٍ كَذَا
وَكَذَا، فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا"، فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: "مَا مِنْكُمْ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ
وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ"، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللهِ
اثنَيْنِ قَالَ: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: "وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ".

← نبدأ باسم الباب لأن له العلاقة بباب الاعتصام.

لازلنا في نفس المسألة، لا نتكلم بقياس ولا نتكلم برأي، والرسول -صَلَّى اللهُ
عليه وَسَلَّمَ- كان يقول: (لا أدري)، وكان إذا سُئِلَ عن شيء يسكت حتى ينزل
فيه الوحي. ماذا نعمل بعقولنا وقدراتنا؟ قال: (بابُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ
عليه وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ مِنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ) معناه أن ما نملك من قدرة لا نصرفها
في القياس على معلومات بسيطة، إنما نبذل جهودنا في التعلم.

ثم قال: (مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ) إِذَا تَعَلَّمَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَتَعَلَّمَ أَي أَحَدٍ بَعْدَهُ وَرَثَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مَا مَصْدَرُهُ؟ (مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ) . وَهَذَا فِي خَارِجِ مَوْضُوعِنَا نَشِيرُ إِلَى مَسْأَلَةٍ خَطِيرَةٍ جَدًّا وَدَائِمًا تَكَرَّرَ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالْمُتَقَفِينَ، أَنَّهُمْ يَمْدَحُونَ النَّبِيَّ أَنَّهُ عَبْقَرِيٌّ أَوْ فِيهِ مِنَ الذِّكَاةِ، وَيُرِيدُونَ بِهَذَا الْمَدْحِ الْإِشَارَةَ الْخَفِيَّةَ إِلَى أَنَّ مَا أَتَى بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ! وَأَنَّهُ مُصْلِحٌ اجْتِمَاعِيٌّ، وَأَنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ وَأَخْرَجَ لِلأُمَّةِ كُلِّ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى ذِكَاةٍ وَفُطْنَتِهِ! وَنَحْنُ يَقِينًا نَعْلَمُ أَنَّ فِيهِ مِنَ الذِّكَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا لَا يَوْجَدُ فِي أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ اجْتَمَعَ لَهُ هَذَا كُلُّهُ، لَكِنَّ هَذَا اجْتِمَاعٌ لِاسْتِقْبَالِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، وَلَيْسَ لِإِنْتِاجِ هَذَا الْعِلْمِ لِلنَّاسِ، وَهَذَا الْفَرْقُ فِي طَرَحِ هَذَا الْمَفْهُومِ. الْمَقْصِدُ: أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْغَمَزِ وَاللَّمَزِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ مَا يَجْعَلُ النَّاسَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَمْدَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ! وَهَمٌّ فِي الْحَقِيقَةِ يُرِيدُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ مِنْ إِخْتِرَاعِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَنَحْنُ نَقُولُ: "لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صِفَاتُ الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَظُنُّهُ، مِنْ حَيْثُ أَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ، مِنْ حَيْثُ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، مِنْ حَيْثُ فَهْمِهِ، فَهْمِهِ حَتَّى لِأَحْوَالِ النَّاسِ حَوْلَهُ، كُلِّ هَذِهِ عَطَايَا اللَّهِ فَهُوَ أَكْمَلُ الْبَشَرِ، لَكِنَّ لَيْسَ هَذَا الْكَمَالُ مِنْهُ أَتَتْ الشَّرِيعَةُ، بَلْ يَعْلَمُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، بِدَلِيلِ

أنك تجد في القرآن كثيرًا قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إذا هو يؤمر بأن يقول، معناه يعلمه الله وينزل عليه الوحي، فتسمع آيات وينزل عليه الوحي فتسمع السنة، فالسنة والقرآن كلاهما وحي حفظه الله عز وجل.

قال: (لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمَثِيلٍ) بهذا نكون مطمئنين لعقيدتنا أن ما يقوله النبي ويعلمه لأمته إنما مما علمه الله، ولا تلتفت إلى ما يقولونه كأنها مدح لكن في حقيقته أنه قدح في النبي صلى الله عليه وسلم.

أتى بشاهد على أن النبي يعلم أمته فقال: (جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ الرَّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ، يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ) إذا هذه عقيدة نحملها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- علم الأمة مما علمه الله، ليس برأي ولا تمثيل، يعني ليس فكرًا أبدًا؛ ولذلك عندما تأتي ونرى نتاج الفكر الإنساني أو ما يسمونه الفكر الإسلامي، نراه يدخله الفلسفة ولا بد، لكن عندما نرى آثار العلم، سنراها تهدي الفكر، يعني أنت تفكر وعقلك يستفيد لكن مما علمك الله، فرق كبير بين الرأي والتمثيل وبين تعلم ما علمنا الله، من يتعلم مما علمه الله سيفكر فيما علمه الله ويفهم ما علمه الله وينتفع به، مثلًا: الله -عز وجل- علمنا عن آياته العظيمة التي هي بمثابة شواهد على كمال

صفاته، وكثير ما يأتي في القرآن الإشارة إلى الشمس، من شروقها إلى غروبها، كيف أنها من المخلوقات العظيمة التي تدل على عظمة الخالق، مثل هذا الخبر الذي أتى عن خلقه للسموات والأرض وخلقه للشمس تسمعه من كلام الله ثم تفكر فيه بيومك وليلتك، ومن قرأ مطلع سورة يونس، وقرأ فيها احتجاج الله على من أنكر البعث بالشمس والقمر، تفكر كيف احتج عليهم؟ هم أنكروا البعث، ويرد عليهم فيقول لهم بمعنى أن فكروا في الشمس والقمر ستعلمون أن البعث حقيقة، فتفكر أنت كيف تدل الشمس والقمر على البعث؟ إلى أن تفهم كلام أهل العلم ويظهر لك المعنى بوضوح،

- كل يوم تولد فيه الشمس، معناه أن هذه ولادة.

- كل يوم تبقى الشمس فيها في رابعة النهار، معناها الشباب.

- ثم في الغروب كأنها تموت.

- عندما تموت من يردّها مرة أخرى؟ الله عزّ وجلّ.

انظر للقمر بنفس الصورة، يولد في أول الشهر كأنه الإنسان، يصبح في وسط الشهر بدرًا كأنه الشباب، يأتي في آخر الشهر يموت، من يردّه مرة أخرى؟ الله، فهذه أدلة على أن من يمر بهذا كله ويموت من يردّه؟ يردّه من

يردك أنت، من ردّ الشمس كل يوم، ومن رد القمر كل شهر، الله. فالمعنى أن مثل هذا فكّر فيه يعني فكّر فيما أخبرك الله.

تأتي الأمثال في القرآن، يُضرب لك مثل في القرآن يراد منك التفكير فيه، في سورة الجمعة مثل عن اليهود وعلاقتهم بالكتاب تخويفًا لك حتى لا تفعل ما فعلوا، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^(١) فكّر الحمار يحمل أسفارًا، ماذا يستفيد منها؟ ﴿أَسْفَارًا﴾ يعني كتب فيها علم، هل يستفيد منها؟ لا، فكل من حمل الكتاب وحفظه، مادام لم ينفعل به يصبح مثل هذا المثل. المقصد: أن في كتاب الله وسنة نبيه ما تفكر فيه، وهبت عقلًا من أجل أن تسمع ما علّمك الله فتفهمه وتفكر فيه كما ينبغي، تفهم كلام الله لا أن تنتج على كلام الله كلام! بل افهم ما قاله الله وقاله رسول الله.

الأمثال كلها في القرآن تحتاج إلى عناية ولذلك كان السلف عندما يمرون على مثل ولا يفهمونه يخافون على أنفسهم؛ لأن من أوصاف المؤمنين فهم

(١) الجمعة: ٥.

الأمثال، ومن أوصاف المنافقين عدم فهم الأمثال، والأمثال في القرآن كما يقول أهل العلم: "سُجِرَ القرآن" يعني التي تضيء لك الفهم.

يُضْرَبُ لك مثل بالعنكبوت وتعلق الناس بغير الله، كأنهم احتموا ببيت العنكبوت! بيت العنكبوت تراه أمام عينك وتراه ما يحتجى به أحد، فكأنه يقال: أي أحد من الناس تدخل تحت حمايته، وترى أنك مطمئن لذلك، أيًا كان سلطانه، فإن سلطان أي أحد من الناس يشبه ظل بيت العنكبوت تمامًا! لا يحيي أحد ومثله سلطان أي أحد من الناس لا يحيي، وبذلك تتكوّن عقائد وتفهم الحياة من كلام الله، وهكذا تفهم لماذا كل هذه المخلوقات حولك، يعني تنتفع بها، تعتبر بها، تستمتع بها، كلها ما تخلو من هذه المصالح: للانتفاع، للاعتبار، للاستمتاع. ومن رأى هذا في كتاب والله وفي الكون إلا ويزداد يقينًا برب العالمين.

الشاهد: نحن نتعلّم ما علّمنا الله ولا نتكلم إلا بما علّمنا الله.

هذه المرأة الفطينة أتت للنبي وقالت له: (ذَهَبَ الرَّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ، يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ)، هذه الفطنة تلزمتنا أن نفهم أن العلم ليس خاصًا بالرجال دون النساء، بل الرجال والنساء وكما يقول أحد المعاصرين: "إنك إن علمت ولدًا علمت فردًا، لكن إن علمت امرأة

علمت أمة! والسبب أن تحت هذه المرأة ما تحتمها، وقدرة المرأة على الكلام والإقناع كبيرة، وهذه الميزة تساعدنا على أن نبذل جهودنا في نشر العلم وتعليمه. وهذا فضل الله، ومن يتربى تحت أيدينا يتربون في زمن يكونون فيه مستعدين للتربية، يعني تصور نقش الأمهات في فطر الصغار وستعلم الفرق بين تعليم الرجل وتعليم المرأة، يعني المرأة عندما تتعلم ستنقش في فطر كل هؤلاء الأبناء، في مقابل أن الرجال لا يلتقون بالعلماء إلا بعد مرور فترة الفطرة السليمة، فالولد من أن يفهم الخطاب ويرد الجواب إلى قرب البلوغ، يكون باقياً على فطرته السليمة ويستقبل منك، ثم يخرج بعدها للمساجد وللعلماء، فالفترة الخطيرة من حياته ستكونين أنت معلمته.

فَقَالَ: (اجْتَمَعْنَ فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: "مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ") يبشرهم أن فقدهن لأبنائهن سببٌ في أن يكنَّ حجاباً لهنَّ من النار. والمعنى أن هذه الشريعة العظيمة لما نزلت جعلت لكل أحد من الجنسين- الذكر والأنثى- ما يناسبه من أبواب الأجر، فالمرأة التي تشعر بالفقد أكثر من الرجل ويكون هذا الطفل في أحشائها وأحضانها، عندما يموت هي ستكون المأجورة على

فقدته وإن كان الأب يُؤجر، لكنها تُؤجر أكثر ويكون حجابًا لها من النار؛ بسبب ما يكون في قلبها من مشاعر، وهذه مراعاة من الشريعة لها تخصيصها أن الأجر لها أكثر: (فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اثْنَيْنِ قَالَ: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: "وَأَثْنَيْنِ وَأَثْنَيْنِ وَأَثْنَيْنِ") وهذا من رحمة الله بنساء المؤمنين بأن فقدهم جبره يكون بالعضوض بالحجاب من النار، كما أن الرجل قد قيل له: «مَنْ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَنَاتِ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»^(١) يعني تأتي الأخبار المبشرات موافقات لمشاعر الناس، الرجل قيل له إن ابتليت بشيء من البنات وربيتهم وأحسنت تربيتهم؛ يكن حجابًا لك من النار. لماذا؟ لأنه سيستثقل البنات، فقيل له: "أحبّ البنات بسبب أنهن حجابٌ لك من النار"، وقيل للمرأة التي فقدت أبناءها -لأنها أكثر مشاعر تجاه المفقود- إنها إن فقدت اثنتين أو ثلاثة؛ يكنّ حجابًا لها من النار، فأتت المبشرات موافقة لأحوال الناس، سبحان من شرّع هذا الشرع العظيم!

(١) أخرجه البخاري (١٤١٨).

نستفيد فائدة أخيرة: انظر للمرأة كيف كانت تسأل الرسول، وكان السؤال في مكانه، وكان مفيداً لنا، أنه كان الحكم لثلاثة وأصبح لاثنتين، فهذا معناه أن المرأة أيضاً لها قدرة وفطنة على السؤال الجيد.
أسأل الله أن يرزقنا ذلك!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللقاء الرابع عشر

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

"لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ"

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

نحمد الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً، فهو وحده المنان الذي منّ علينا
بالاجتماع بجوار بيته الحرام في أحب بقعة إلى الله، أسأل الله أن نكون أهلاً
لإعمارها بالإيمان والتقوى والصلاة والذكر وتعظيمه سبحانه وتعالى.

في هذا المجلس المبارك نناقش موضوع **الاعتصام بالكتاب والسنة**، ودائماً
نكرر على أنفسنا أن الله بمنتته وكرمه على خلقه مدّ لهم حبلاً به ينجون،
فإنه -سبحانه- قد أمرهم في كتابه فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾
وحبل الله كما فسّره أهل العلم: "**الكتاب والسنة**"، وكلما أردنا أن نفسر
ظاهرة في العالم الإسلامي فيها حالة من الشذوذ سيعود تفسير هذه الظاهرة
إلى ترك الاعتصام بالكتاب والسنة، فإننا إن أردنا أن نفسر ظهور الإلحاد

بين ظهري قوم تربوا على معرفة الله، نقول: السبب أن أباهم حتى مع تربيتهم لأبنائهم تربية يظنون أنها دينية، لكن ما كان الاعتصام بالكتاب والسنة هو المنهج، فدخلت الفلسفة من اليمين واليسار وتُركت أوعية قلوبهم قابلة لغير دين الله؛ فحصل الانحراف. والملاحظ أن من أوائل الذين تكلموا من الشباب في الإلحاد، كان بعضهم حفظة لكتاب الله، فكيف يكون حافظاً لكتاب الله ومع ذلك يحصل منه الإلحاد؟ الجواب: أن الاعتصام بالكتاب والسنة ليس معناه أن تحفظ، بل **المعتصم بالكتاب والسنة له أوصاف:**

ومن أهمها: **الوصف الأول:** يستغنى بالكتاب والسنة عن كل شيء.

الاستغناء بالكتاب والسنة عن كل طريق يهدي الإنسان، فما من شيء يهدي في التربية أو في التعليم أو في الاقتصاد ولا في أي ناحية من نواحي الحياة، لا في تزكية نفسك ولا في تربية أبنائك ولا في إصلاح مجتمعك إلا ما هو في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

ثم **الوصف الثاني للمعتصم:** يتعلم كتاب الله وسنة رسوله.

يتعلمها لفظاً ومعنى، فيبني إيمانه من الكتاب والسنة؛ ولذلك لابد أن نعلم أن المقصود بالاعتصام بالكتاب والسنة هو أن يُبنى الإيمان وتصور

الحياة من هذا الكتاب، من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ أسئلة الاختبار الثلاثة التي نحن على يقين من أننا سنسألها في قبورنا، الحياة مدرسة تتعلم فيها إجابة هذه الأسئلة الثلاثة، وهذه المدرسة تدرس فيها الكتاب والسنة.

فمعنى ذلك أننا نعيش طوال الحياة لنعلم من هو الله، فكلما قرأت القرآن، معتصمًا بالقرآن؛ تعلمت عن الله، تقرأ أسماءه وصفاته وأفعاله وكلما قرأت في القرآن تعرفت على ملائكته الكرام، وعرفت أنبياءه ورسوله، وكلما قرأت في القرآن عرفت كيف سيكون حالك وقتما تلقاه، وعندما تعلم من أنت ومن أين أتيت؛ ستعلم إلى أين المصير وماذا يجب عليك أن تفعل.

معنى ذلك أن أهل الإيمان، المعتصمين بالكتاب والسنة، ليس دورهم الحفظ، إنما دورهم كما سمعنا من كلام ابن عون: **(ثَلَاثٌ أَحْمِنَنَّ لِنَفْسِي وَإِلِخْوَانِي، هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ)**، فالمطلوب أن نتفهم القرآن ونسأل عنه لنكون معتصمين، يعني من يتمسك بالكتاب والسنة ليس فقط يحفظ ألفاظه، إنما تكون معانيه مستقرة في قلبه حتى تبلغ درجة اليقين؛ ولذا عندما مدح الله في سورة السجدة الفئة التي من بني إسرائيل التي جعلها أئمة، قال عنهم: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا**

يُوقِنُونَ ﴿١٠﴾، فالمطلوب اليقين، فالمعتصم لابد أن يكون متيقناً بالكتاب والسنة، متيقنٌ يعني يعلم الكتاب والسنة ويفهمها ويكونان مستقرين في قلبه وينظر للحياة من عين تعلم كلام الله وكلام رسوله.

وكان المثال أمس: أن الناظر للشمس والقمر إن رآهم بعين العادة والمربي والإلف، سيراهما مجرد جرمين عظيمين في السماء، ومن ينظر لهما من خلال كلام الله وكلام رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإنه ينظر إلى عظيم فعل الله، وإلى ما يدل على عظمة الله ورحمته، فإن الذي يعلم آثار وجود الشمس على الأرض يعلم كم الله -عَزَّ وَجَلَّ- حكيم، كم هو رحيمٌ بعباده -سبحانه-، يعلم أنه على كل شيء قدير، بل تزيد هذه العين نظرًا من الكتاب والسنة فيتصور الشمس وهي تشرق كولادة أي إنسان، وعندما تكون في كبد السماء كشبابه، وعندما تغرب كموته، فالذي يعيد الشمس تشرق من جديد هو الذي يعيد هؤلاء القوم فيُنبتهم نباتًا من جديد ويجمعهم ويحاسبهم يوم القيامة، وهو -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير، انظروا للقمر بنفس الطريقة يولد ويصبح بدرًا ويموت ثم يعيده الله، وهذا الإنسان يولد، يصبح شابًا، يموت ثم يعيده الله.

فمعنى ذلك أن المعتصم بالكتاب والسنة يقرأ كلام الله وكلام رسوله ويفهمهما ويرى الأشياء بعين الذي يفهم كلام الله وكلام رسوله، مثلاً يسمع في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ فيسم كل الناس حوله بهذا الوسم، أنهم اختبار، وأن الناجح في الاختبار هو الذي ياتمر بما أمر الله، وهكذا عين المعتصم لا ترى إلا كما وصف الله وكما حدث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا معنى أن نقول كل يوم: «رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(١)، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا يربيني ويرشدني وينزل الكتاب على رسوله فأرشد به؛ لأن هذا الكتاب لا ريب فيه، تنزيل من رب العالمين الذي يربيك؛ ولذلك أظلم الناس من يُذكر بآيات ربه ثم يُعرض عنها؛ لأن ربه يربيه ليوصله للكمال وهو يُعرض عن تربية رب العالمين فيُوصل نفسه للفساد؛ ولذا مثل هذه الأحوال تظهر وقت المواقف، وقت المواقف يتشتت الإنسان في ردود فعله، لمن يفتن أول ما تنزل عليه المصيبة؟ إذا كان يعلم أن الله هو الأول والآخِر والظاهر والباطن وأنه بكل شيء عليم،

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٩).

وعلى كل شيء قدير وله ملك السماوات والأرض، ستكون فزعتة لله، إذا علم من سنة رسول الله ما يهتدي به في الحياة فقد تم له الاعتصام.

تناقشنا في مفاهيم كثيرة ملخصها:

- أن المعتصم مستغن بالكتاب والسنة عن كل شيء غيرهما، وهذه الصفة أتت من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(١) يتغن أي: يستغني بالكتاب والسنة.

- أن المعتصم يجتهد في التعلم، وقد قرأنا (بَابُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتُهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمَثِيل).

فإذا موقفنا من جهة العلم أن نعلم ما هو العلم الحقيقي، بقية الأمور فنون تفنن فيها أهلها ومهروا، لا بأس بها لكن العلم الذي به تنجو، هو العلم الذي علمه الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ ولذلك في أوائل سورة الروم يذم الله من لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، المعنى لو كان الإنسان يعرف شيئاً من الدنيا ويعرف فيما يقابله شيئاً ينجيه عند ربه،

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٩).

سيرى الشيء الذي من الدنيا بعين من يعرف أنه من عطية الله، من منة الله، فمثلاً تصور طالباً في كلية الزراعة، علّموه كيف تُزرع هذه الأشجار التي منّ بها الله، هذا في الأصل علم من علوم الدنيا، لكن ألا تجد في كتاب الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(١) إذا هذا المعتصم حتى عندما يتعلم من فنون الدنيا شيئاً، عينه تراه من جهة اعتصامه بالكتاب والسنة، يرى كل ما يتعلمه شاهدٌ على عظمة الله، ويزيده إيماناً بالله، معناه من الذي يُذم؟ من يتعلم ظاهراً من الحياة الدنيا وغافل عن الآخرة، لكن من يتعلم من الدنيا ما يعينه على دينه، فهو قد تعلم ما ينفعه.

- ثم إذا تعلم المعتصم الكتاب والسنة فسيُضطر للسؤال، فيقال

له: "اسأل من تثق أنه عالم، لكن لا تتعدى ولا تتكلف في السؤال، ولا تصل لحد التعمق والغلو في مباحث العلم الذي تتعلمه."

فإذا علمت عن الله أنه الأول والآخر والظاهر والباطن وأنه بكل شيء عليم، فاعلم ما هو الأول كما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو:

(١) الواقعة: ٦٣-٦٤.

الذي ليس قبله شيء. والعقل يقبل هذا؛ لأن كل شيء في عقولنا له أول، مثلاً يوجد أول النهار وآخره، أول العمر وآخره، يوجد أول من اخترع، كل عقولنا السليمة تقول: "لكل شيء أول"، فتعلم عن الله أنه الأول قبل كل شيء. إلى هنا علمت وسألت عن معنى الأول كما في سورة الحديد، وسمعت الجواب، انتهى الأمر، أكثر من ذلك سيعتبر تعمقاً وممنوعاً.

إذا استغنٍ بالكتاب والسنة، تعلم الكتاب والسنة، اسأل عن الكتاب والسنة، لكن لا بد أن يكون هناك حدود ولا يحصل تعمق ولا غلو؛ لأن هذا هو الذي يسبب شذوذاً في التفكير؛ أن الإنسان يرى نفسه حاكماً على كلام الله وكلام رسوله.

الآن بعد أن تعلم الإنسان، قد يصل إلى حد التعالم؛ نتيجة تصوره أنه تعلم؛ فمن أجل ذلك أتت الأبواب التالية تقول

- كما أن المعتصم عليه أن يتعلم ويجتهد، كذلك عليه ألا يتكلم على الله بلا علم.

بل أورد البخاري -رحمه الله- باباً سماه: (بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُسْأَلُ مِمَّا لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَيَقُولُ: "لَا أَدْرِي")، فمعنى ذلك إذا كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: "لا أدري"، فنحن من باب أولى علينا أن نقول

ذلك. وتناقشنا في هذه المسألة الخطيرة التي أتت وسائل كثيرة تُسبب زيادتها، مثل فشوّ القراءة، كما تعلمون في الزمن الماضي لم يكن كل الناس يقرؤون، ولم يكن التعامل سهلاً، لكن اليوم كل الناس يقرؤون، فيقرأ أيّ منهم لافتة أو عنواناً أو مقالاً، فيعتقد نفسه أصبح عالماً! وقد يجادل في كلام أهل العلم! اليوم خلافاً عما مضى، أصبح هناك مسألة تحقيق الذات، العلو، يعني تجلس في مجلس كل من فيه يتنافسون ليكونوا الأعلى، مرض العلو في أصله موجود عند الإنسان، والله في سورة القصص وصف فرعون وقارون بأنهم اشتركا في العلو، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وفي آخر السورة أخبرنا عن قارون وحالته إلى أن قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجَعْنَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولا تتوقع أن الذين يريدون علواً، هؤلاء أناس بعيدين عنك، بل هذا العلو قد يكون في داخلنا، بحيث إن طرح رأي، لا بد أن تتكلم ولا تسكت! وإن قال أحد رأياً يخالف رأبي -حتى إن ظننت أنه صائبٌ أو فيه نسبة من الصواب- لا بد أن يكون مخطئاً! هذا في النفس موجود والتقي يمنع نفسه، وقليل التقوى يفلتها؛ فيحصل التعامل ويصبح يتكلم في دين الله بما لا يعلم، وضررنا مثلاً في السعي؛ يأتي من يقول لإحدى النساء: "المرأة لا تجري"، فتأتيها مشاعر

العلو مع الجهل؛ فترد قائلة: "أول من جرت في هذا المكان امرأة، كانت هاجرا!" فمن ثمّ تقيس قياسًا فاسدًا وتجعل في الشريعة حكمًا ما أتى الله به! وهذا كله من باب أنه لا بد أن يكون كلامها هو الصواب! وهذه الحالة منتشرة جدًّا في النساء أكثر من الرجال والسبب: قال تعالى: ﴿أَوْمَنُ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(١) ماذا يفعل من هو في الخصام غير مبين؟ يصر على رأيه، وهذا الإصرار يجر الإنسان إلى التعالم.

نحن في خطر بسبب أمراض القلوب وهذا موضوع يطول شرحه، لكن باختصار: إن تعاملت في أي مسائل تتصل بالدنيا، يبقى الخطأ في كونك تتعالم، لكن عندما يصل التعالم للدين؛ نصل للجريمة العظيمة وهي: القول على الله بلا علم. وقد تذاكرنا أمس آية سورة الأعراف التي دلت على أن القول على الله بلا علم في درجة الشرك أو أعلى منه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)

(١) الزخرف: ١٨.

(٢) الأعراف: ٣٣.

وعلمنا أن هذه الآية بدأت بالأدنى من الذنوب إلى أعلاها، والقول على الله بلا علم هو أعلاها.

اليوم هناك أسباب كثيرة تجعل القول على الله بلا علم منتشراً: فشوّ القراءة، وظهور المنافسة، والعلو، ووجود أمثلة للتعالم. يعني الإعلام يحمل ضجيج المتعلمين! يلمّعونهم ويخرّجونهم في الإعلام ويتكلمون في دين الله بما لا يفقهون والناس يتابعونهم، وتدخل الفلسفة على المسلمين من هذا الباب. هذا الموضوع يحتاج للكثير من المناقشة والإعادة لكن نهايته أن المعتصم لا يتكلم في دين الله إلا بما يعلم وقول: "لا أدري" يعتبر قرينة وعبادة؛ لأنه يدل على أن الإنسان واضح نفسه في مكانه، واليوم لا يوجد عذر لمن يقول: "إني لا أستطيع أن أصل إلى العلم"؛ لأن من خُصصوا للفتوى موجودون والوصول إليهم سهل.

بهذا انتهينا من مراجعة ما سبق، نبدأ اليوم **بالباب العاشر** ودلالاته:

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

"لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ" ، وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ.

• حدثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ."

• حدثنا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي حُمَيْدٌ، قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ يَخْطُبُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ."

← تدارسنا سابقًا الباب السابع (بابُ مَا يُذَكَّرُ مِنْ ذَمِّ الرَّأْيِ وَتَكْلِيفِ الْقِيَاسِ) وسمعنا فيه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ» وسمعنا كذلك: «يَبْقَى نَاسٌ جُهَالٌ يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ».

الحديث بيّن لنا أنه كلما يأتي زمان سينقص العلم إلى أن يزول، هنا أعاد البخاري وأورد هذا الحديث (بابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ يُقَاتِلُونَ") نريد أن نجمع الآن بين الأحاديث -حديث أن العلم لا يُنتزع انتزاعًا بل العلماء يموتون، وهذا الحديث

الذي فيه أن طائفة من الأمة لا تزال ظاهرين حتى يأتهم أمر الله وهم ظاهرون:-

لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الخبرين لأن كلاهما صحيح من جهة الإسناد، كيف نفهمهما؟ بالنسبة كما ذكر الطبري -رحمه الله-، يعني بالنسبة للعالم الإسلامي حالهم أمس خير من حالهم اليوم، حالهم في القرن الماضي خير من حالهم في القرن الحالي، يعني بالنسبة للعالم الإسلامي كل يوم يمر عليهم يحصل نقص في العلم، لكن قد ينزاح في بعض الجهات، تبقى في بعض الجهات طائفة من الأمة صفتهم: ظاهرين على الحق، ما يهمننا في هذا أن نفهم أنه لن يأتي وقت من الزمان إلى قرب قيام الساعة ولا توجد أي جهة من العالم فيها حق، بل سيبقى الحق موجودًا إلى أن تقاتل هذه الطائفة الظاهرة الدجال، إلى أن ينزل عيسى -عليه السلام-، إلى أن تأتي الريح التي تأخذ أرواح المؤمنين وما يبقى على الأرض إلا الشرار. معناها صحيح أن كلما أتى زمان كان أشر من الذي قبله بسبب نقص العلم بنقص العلماء، لكن تفهم أن عدد المسلمين عظيم والعلماء يصبحون أقل، يعني قارن بين الصحابة والتابعين مثلًا، الصحابة أصحاب العلم متوافرون، فيكون عدد قليل، من لا يملك علمًا، حتى أن النبي -صلى الله عليه وسلم-

مات وابن عباس لم يبلغ الثانية عشر، فقال لصاحب له من الأنصار تعال
لنسأل صحابة رسول الله من أجل أن نطلب العلم، فكان الأنصاري يقول له:
"هل تظن الناس يحتاجونك مع وفرة كبار الصحابة؟!" والصحيح أن هؤلاء
الصحابة الكبار ماتوا وبقي الصغار، كثر الذين لا يعلمون في مقابل الذين
يعلمون، أتى التابعين تعلموا مثلاً في مدرسة ابن عباس، مدرسة ابن
مسعود، في مكة، في المدينة، في الكوفة، أصبح في العالم الإسلامي من حيث
عدد الناس أكثر ومن حيث عدد العلماء أقل، وهكذا إلى قرب قيام الساعة،
لكن لا يمكن أن يختفي العلم، ويقصد به العلم الصحيح الذي مبناه على
التوحيد، وهذا هو الفارق، كثير من يتكلم في العلم وقد يفتونك في مسألة
فقهيّة لكن يُقصد العلم الصحيح الذي مبدأه التوحيد بمعنى أصحاب هذا
العلم الصحيح يدعون الناس إلى الله وحده ويمنعون الناس من عبادة غير
الله، بمعنى ترى العالم الإسلامي عدد الناس فيه كثير، وترى العالم الإسلامي
فيه من العلماء من فيه، لكن أيضاً ترى في العالم الإسلامي انتشار القباب،
ودعوة غير الله، والتمسح بالقبور، وطلب غير الله، والذبح لغير الله. إذا كثرة
هذا في مقابل التوحيد، معناه ماذا؟ مات العلماء، وأتى أقوام جاهلون، أفتوا
الناس، فضلوا وأضلوا، بمعنى لا تحصرُوا الفتوى والإمامة في الحق في

مسألة أن تسأل ما حكم كذا وكذا، أصل الإمامة في الحق هو الإرشاد إلى توحيد الله، هذا أصل الإمامة في الحق، يعني إمامك الذي يعلمك الحق يخطب بك فيقول لك: "لا تطلب إلا الله، لا تتقرب ولا تفزع إلا الله، الله الحكيم المجيب، الله لا يحتاج أن تجعل بينك وبينه شفيعًا، تقلّب في فراشك واذكره واطلبه يعطيك، حتى وأنت على فراشك لا تظن أنك تحتاج مع ربك لواسطة"، هؤلاء هم العلماء الدعاة إلى ما دعا له رسول الله، وتعلمون أن النبي بقي في مكة ثلاثة عشر عامًا، ولم يأمر الناس بالصلاة إلا في السنة العاشرة، ماذا فعل معهم خلال العشر سنوات؟ كان يدعوهم للتوحيد، يعني يعرفهم من هو الله وكماله وجلاله وعظمته وسلطانه، ويعلمهم ألا تلتفت قلوبهم لغير الله، ومعرفة الله بكماله وجلاله وعظمته وسلطانه أمر تبقى الناس تحتاجه على مر العصور، بل الإنسان نفسه يسمع هذا الخبر عن الله أمس ويحتاج أن يسمع اليوم، بل يسمعه بعد الصلاة الأولى فيطلب منه أن يسمعه بعد الصلاة الثانية، وهذا إشارة إلى أمرنا بقراءة سورة الإخلاص في أذكار الصباح والمساء، بعد الصلوات، عند النوم، لماذا؟ يعني ذكّر نفسك دائمًا أن لك واحد هو الذي تصمد إليه، هو ركنك الشديد، هو من له الكمال والجلال والعظمة والسلطان، وهو الذي

إن وضعت حوائجك عند بابه تطمئن، وهو الذي إذا مرّ على خاطرك مخاوف فذكرته اطمأنت، وهو الذي إذا مرّ على خاطرك مطامع فذكرته فيشرح صدرك أنه سيحقق لك مطامعك، وهو الذي ينجيك ويحفظك ويرشدك. فالأئمة المطلوب وجودهم والذي يُخاف من انقراضهم هم الذين يعرفونك من هو الله، ولا يجعلون بينك وبين الله واسطة، لا أنفسهم ولا غيرهم، ليس هم الذين يرشدونك لتقف بين يدي أحد غير الله! وتعلمون أن قريش كانوا يصومون ويحجون، لكن كانوا في حجهم يقولون: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكاً تملكه وما ملك"، يعني يحشرون الشريك مع الله، لكنهم يلبون الله، معناها أنهم يعرفون الله وعظمته وسلطانه، لكن يدخلون أحداً غير الله مع الله.

إذا ما المقصود بالطائفة من الأمة التي تبقى ظاهرة على الحق؟

أصل الحق المقصود به التوحيد؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أتى يعرف الناس من هو الله، أرايتم كيف نكرر آية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله لما فيها من معرفة عظمة الله وسلطانه وجلاله. ولاحظ بعدما تقرأ آية الكرسي يقال لك: ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي أن كل نفس سوية إذا عرفت الله بكماله وجلاله وعظمته وسلطانه، لا يمكن أن تتعلق إلا بالعلي، لا

يمكن أن تعظّم إلا العظيم، فالله هو العلي العظيم، فإذا عرفتُ الله حق المعرفة لا تحتاج أن تُكره على الدين، ستساعدُها فطرتها السوية على أن تتعلق وتفزع إلى الله.

إذاً هكذا نقرر من هي الطائفة من الأمة الباقية على الحق، يتفرع من هذا أنه عندما يحكم هؤلاء في الأحكام الشرعية، لا يتجاوزون كلام الله ولا كلام رسوله؛ لأنهم يعلمون أنهم عباد، وإيمانهم بأن الله حكيم ويقينهم بأنه أكمل الدين يجعلهم ما يتجاوزون دين الله. إذاً في العقائد هم يدعون إلى التوحيد، في الأحكام ما يحكمون إلا بما أنزل الله.

فالمقصد هذه صفة الأمة الظاهرة، وهم بالنسبة لعامة ديار المسلمين اليوم يُعتبرون نسبة ضئيلة لكنها موجودة، وليس لها علاقة بالديار ولا الأرض؛ لأن قبل مئة عام أو أكثر كانت هذه الطائفة المنصورة التي تتكلم عن التوحيد في ديار الهند! وكانت المطبعة الهندية تطبع كتب السنن النبوية بعد زوال الاحتلال البريطاني، فانتفعوا بالمطبعة في طباعة سنّة رسول الله، ثم هذه الدولة التي كان فيها التوحيد في ذلك الزمان وارتحل عنها، اليوم فيها ٣٦٥ ديانة وفرقة على عدد أيام السنّة! فالأمر ليس مرتبطاً بالأماكن، بل مرتبط بوجود علماء كبار ويعلمون الناس السنّة، فيتعلم الناس ويكونون

موحدين، يموت العلماء ويرحل الصغار، فيذهب المجتمع بعيدًا عن دين الله ويُعبد غير الله، رغم أنهم في ظاهر المسألة مسلمون.

إذَا المقصود بالأمة الظاهرين على الحق: من يتابعون النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في العقيدة والعمل، فلا ينحرفون في عقائدهم عن التوحيد سواء يقينهم بأن الله رب العالمين، أو يقينهم بأنه -سبحانه وتعالى- له الأسماء الحسنى والصفات العلى كما وصف نفسه، أو يقينهم بأنه وحده المستحق لأن يؤلّه ويُعبد سبحانه، هذه هي الطائفة الظاهرة إلى قيام الساعة من جهة عقيدتها، وهؤلاء لإيمانهم بكمال الله وكمال الدين وتمامه، لا يتعدون في أي حكم دين الله، فلا يحكمون بأهوائهم وإنما يتابعون سنّة رسول الله.

بهذا فهمنا أنه صحيح يموت العلماء ويأتي جهال، لكن لا بد في جهات العالم الإسلامي أن تبقى هذه الطائفة التي هذه صفاتها، ونكرر هذه الطائفة لا علاقة لها بالمكان أبدًا، يعني تدور في العالم الإسلامي على حسب فشوّ الجهل أو حسب ظهور العلم؛ لأنه -مثلًا- قبل أقل من مئة عام في الديار السعودية، في كثير من مناطقها كان هناك مقابر وأشجار تُعبد من دون الله، ولما أتت دعوة التوحيد مُحيت هذه الآثار تمامًا بسبب بقاء العلماء الذين يرشدون إلى التوحيد، أما عندما يزول العلماء وطلبة العلم، يحصل مثل

هذا، ولذا من الدعاوى الخطيرة جدًا أن نسمع عن مسلمين قد يتجرؤون من وراء الأجهزة ووسائل الاتصال، أن يتعدوا على ذات الله، وعلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والسبب -كما ذكرنا-: أنه لا تظهر هذه الظواهر إلا عندما يقل الاعتصام بكتاب الله. وأكثر الجمل المكررة التي تسمعها عندما تقول لأحد: "تعلم عن الله بأسماء وصفاته وأفعاله، تعلم كيف يستحق الله أن تحبه وتعظمه" أن يقول لك: "نحن موحدون وفي بلد موحدة!" لو كان هذا الأمر صحيحًا لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«...ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمّتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمّتي الأوثان»**^(١). فمعنى ذلك أن هذا سائر سائر، وغياب العلماء هو الذي يوصل لذلك، فالطمأنينة أنه لدينا كل شيء، هذا يُفقدنا الحرص على التوحيد؛ ومن ثمّ يزول العلم، ولنقيس أنفسنا بمقياس سهل، ونختبر أنفسنا بنفسنا، فلنعرض على أنفسنا أسماء الله وصفاته ونسأل أنفسنا: "ماذا نعلم عن أسماء الله؟ عن صفات الله؟" لا نجد جمل مفيدة! إشارة إلى أن هذا العلم غائب ويزول، وها نحن

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢).

نقول بعد كل صلاة: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ»^(١) وإن سألنا: ما معنى

اسم السلام لله؟ لن تجد جملة مفيدة! إشارة إلى أن هذا غائب.

هذه الطائفة من الأمة المنصورة أهم شرط فيها:

- أنها تدعو الناس إلى معرفة من هو الله ومعرفة عظمته وجلاله بأسمائه

وصفاته وأفعاله ومعرفة أنه يستحق أن يؤلّه وحده.

- وأنها تُرشد الناس إلى أن النبي الكريم الذي أرسله الرب الحكيم، قد

أرشد الناس للأفعال والمطلوب منا أن نتبعه في الأفعال، فنضع كل

شيء في موضعه.

لا تعتقدوا أن العلماء المقصود بهم الذين يفتون في الأحكام، قد يتوافر

الكثير ممن يفتي في الأحكام، لكن عندما نأتي للتوحيد نجد أن هذه المسألة

لا يُهتم بها وهي من جهة الواقع، فهي واقع.

أورد الحديث ثم قال: (وهم أهلُ العِلْمِ) إذا الطائفة الظاهرة على الحق هم

أهل العلم، ومن سيتبعهم سيكونون في حكمهم، يعني الآن أنا لست عالماً

لكني أسمع العلماء الثقة الذين يدعون للتوحيد. إذاً من يتشبهه يقوم يصبح

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٣).

منهم، من يركب في مركبهم سينجو معهم، إذا هذه الطائفة المنصورة ومن ركب في مركبهم نجا معهم.

(لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ).

المقصود به إما الموت أو يأتي الدجال وما بعده من أحداث وهم ظاهرون، والمعنى أن في الحديث بشرى أنه لا يمكن أن تزول هذه الطائفة المنصورة تمامًا من العالم الإسلامي، بل هي باقية ولها علامات وعلاماتها باختصار: أنها تدعو لما دعا إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وموجودة هذه الدعوة في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

أورد الحديث الثاني ليزيد الأمر بيانًا، قال: **(مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي**

الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى

تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ) ما علاقة الحديث بالباب؟ يعني هذه

الطائفة المنصورة أراد الله بأعضائها خيرًا، كيف ظهرت إرادة الخير؟ أنه

فقههم في الدين، لاحظ الفعل منسوب لله **(مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي**

الدِّينِ) يعني إرادة الخير من الله للعبد تكون بأن

- يُسبب له أسباب العلم، تأتيه أسباب العلم اليسيرة.

- يشرح له صدره لطلب العلم، الله - عزَّ وجلَّ- من منَّه وكرمه على بعض الخلق يقرب لهم العلم ويكون يسيرًا وسهلاً، بجانبه مدرسة تحفيظ مثلاً، مسجد فيه حلقة مباركة، ترتاد الحرم تجد العلماء.
- يقويه على طلب العلم، لماذا؟ لأن العلم يحتاج إلى أسباب وانسراح صدر وقوة، قوة أن يبقى يطلب العلم؛ لأن طلب العلم ليس بالأمر اليسير.

ولاحظوا كل يوم ندعو في أذكار الصباح نقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا"^(١) فمن يصدق في هذا الدعاء وفي قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لا بد أن يأخذ نصيبًا من هذا العلم، ومن يزداد صدقًا ويقينًا ويرى نفسه قد هُيئَ لهذا العمل، فليدع كل سبب يُشغله؛ لأنه مع أن الله يُسبب الأسباب ويشرح الصدر ويعين العبد لكن تأتي اختبارات تمنعه، يعني الأسباب قريبة وصدرك منشرح ولديك قوة، لكن يخرج لك سبب يقطع عليك، يختبرك الله به! ثم أن هذا الطلب بعدما يبدأ الإنسان بتذوق طعمه يدخل في أبواب كثيرة في مصارعة النفس، يدخل في الرياء، في العمل بما تعلم، فليس العلم

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٢٥).

هنا المقصود به جمع الروايات والحفظ، إنما في نهاية الأمر هو نورٌ يُقذف في قلب الإنسان نتيجة تعلّمه، يعني هو يتعلم ويقرأ القرآن والسنة، لكن العلم ليس مجرد أنه يقرأ، بل العلم نورٌ يأتيه من وراء النصوص، نورٌ يهديه في ظلمة التخبط، يعني هذا الذي يتعلم العلم يكون مقصده أن يلقي الله وهو راضٍ عنه، من يتعلم العلم كلما تعلّم تقرب، هذا الذي يتعلم العلم يعلم من هو الله بعظمته وجلاله وسلطانه سبحانه، وليس يعرف نصوص ويحفظها! بل يعرفها ويحفظها ويكون وراؤها نورٌ يقذف في القلب.

إِذَا (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) ييسر أسباب العلم ويشرح صدره ويقويه عليه ويعينه على الموانع ويقذف في قلبه نور هذا العلم، المهم أن نفهم أن من يرد الله بهم خيرًا، هم الذين يكون لهم من العلم في دين الله ما عندهم، الواقع العام في العالم الإسلامي يقول إن أهل العلوم الدنيوية وأصحاب الشهادات في عيون الناس أميز من الذين لديهم علوم الدين، وهذا من الاختبارات الواقعة على طالب العلم، يعني طالب العلم اليوم يكون في المرحلة الثانوية وذكياً فيأتي ويقول: "أريد أن أتخصص في العلوم الشرعية" فيأتي من يقول له: "حرام!" يعني أنت قوي وذكى وفهيم فتوجه للتخصصات العلمية! يعني كأن التخصصات الشرعية ما تحتاج لذكاء وفطنة، هذه

الصبغة لها سبب من أسبابها: أن الناس أصبحوا يفكرون أن أهل العلوم الدنيوية لا يجدون مصالح في دنياهم والصحيح أن الله ينزل البركة على الصادقين وينزعها من الكاذبين، وربما يُعذر بعض الناس بسبب أن هذه العلوم الشرعية دخلها كثير من المنافقين وأصبحوا يتكلمون بلسان القرآن والإيمان، فاختلط على الناس النفاق والإيمان، لكن الحقيقة تبقى النص النبوي أمام أعيننا: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) هذا الفقه يدل على أن الله أراد بهذا العبد خيراً.

يقول -صلى الله عليه وسلم-: (وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ) هذا صلته بالحديث: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم العلم، يعني عندما يجلس في مجلسه يقسم العلم بحكمته -صلى الله عليه وسلم-، يأتي أمامه شخص مثل أبو هريرة -رضي الله عنه- فيعلمه، مثل أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه- فيعلمه، وبعض الصحابة يتعلمون أكثر من غيرهم بسبب ما لهم من صفات خاصة، وهذا فهم دقيق للمعنى، يعني نكون كلنا نحب العلم لكن يُشرح صدورنا لباب دون آخر، وهذه القسمة إنما تكون من عند الله، وفي هذا الموقف يقول النبي: (وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ) يعني مثلاً معاذ -رضي الله عنه- يسمع عن أخبار ما يسمعها -مثلاً- حذيفة -رضي الله عنه-، أو

حذيفة يسمع أخبارًا ما يسمعها معاذ، والسبب أنه يقسم -صلى الله عليه وسلم- على ما يرى من الأشخاص والله هو الذي يعطي هذه القسمة، فنرضى بما قسم الله، ويبقى حب العلم قرابة إلى الله، أسأل الله أن يشرح صدورنا!

قال: **(وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)** هل كل الأمة يبقى أمرها مستقيمًا؟ لا، نعود للكلام الأول، وهو الفئة والطائفة هي التي يبقى أمرها مستقيمًا أو **(حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)** يعني **(وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا)** يعني الأمة التي اجتمعت على التوحيد؛ لأن من اجتمع على مسألة سُبي أمة ولو كان واحد، فهي أمة لأنها اجتمعت على التوحيد وما زال أمرها مستقيمًا؛ لأنها بقيت على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

نقرأ الباب الحادي عشر

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾

• حدثنا عليُّ بنُ عبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: عَمْرُو سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ: "أَعُوذُ بِوَجْهِكَ"، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ

أَرْجُلِكُمْ ﴿ قَالَ: "أَعُوذُ بِوَجْهِكَ"، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾^(١) قَالَ: "هَاتَانِ أَهْوَنُ - أَوْ أَيْسَرُ."

← هذا إكمال للمعنى السابق، هذه الآية في سورة الأنعام لما نزلت على رسول الله وفيها الخبر: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ: رسول الله: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ) فلم يُجَبِ يعني ما أُجِيب أو قُبِلت الاستعاذة.

ثم سمع ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: (أَعُوذُ بِوَجْهِكَ) وهاتان الصفتان معناه أن الأمة قد يقع عليها العذاب فيحصل من ورائه الاستئصال.

ثم أتى خبر آخر أن هذه الأمة قد يلبسها الله شيْعًا ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ يعني تتفرق الأمة على آراء وطوائف ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بمعنى أن كل أصحاب رأي يجتمعون ويقاتلون الباقين، سواء يقاتلونهم بالرأي أو بالحرب، بالرأي يعني مثل ترون في الإعلام أصحاب الرأي يقاتلون أصحاب الرأي الآخر، انظروا لأهل السنة والجماعة يترضون على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه وآل بيته، وانظروا لمن لا يترضون على الصحابة، ماذا

(١) الأنعام: ٦٥.

يفعلون مع أهل السنة والجماعة؟ يشنعون عليهم، فأهل السنة يذوقون بأس هؤلاء، بأسهم إعلامياً وأيضاً قد يذوقون بأسهم في الحرب، معناها بعدما يتفرقون شيعاً يذيق بعضهم بأس بعض.

لاحظوا أن إذاعة البأس لا تأتي إلا بعد الفرقة، والفرقة كان الكافي فيها أن يتعلم الناس، يعني إن تعلموا كلهم سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان حصل الافتراق، لكن أول ما يفترق الناس يتحزبون، وعندما يتحزبون يتقاتلون، ولتتصور هذه المسألة اتركوا مسألة الدين وانظروا للطبيعة الإنسانية، اليوم الشباب وهم يتحزبون لنوادبهم الرياضية، لا يفهم لماذا يختلف مع أخيه في المنزل؟! يدخل معه في قتال في الرأي على أي شيء؟! خرجوا من بطن واحد ثم يتقاتلون على لا شيء! لكن لأن طبيعة الإنسان أنه إن تعصب لرأي قاتل عليه، فإن لم يتحد الناس بالتعليم لابد أن يذيق بعضهم بأس بعض، إذا هاتان المسألتان متصلتان، أن يحصل التفرق ثم يذيق بعضهم بأس بعض.

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذه إنها أهون؛ لأنها ما يحصل فيها استئصال، بل يحصل فيها بقاء مع قتال، قال: (هَاتَانِ أَهْوَنُ - أَوْ أَيْسَرُ) ولم تأت النبي الإجابة، أتته الإجابة في الحديث الصحيح عندما ذهب ليصلح بين

متخاصمين في بني عمرو في قباء ورجع من عندهم، فكان في مسجد بني حارثة وخرج على أصحابه فقال: «سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة؛ سألتُ ربي أن لا يُهْلِكَ أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألتُهُ أن لا يُهْلِكَ أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألتُهُ أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فمَنَعَنِيهَا»^(١).
سأل الله ألا يقع على أمته الاستئصال بسنة عامة، فأعطاه الله، وسأله ألا يُسلط على هذه الأمة من غيرها يعني ما يأتي الأعداء يفنون هذه الأمة فأعطاه، وسأله ألا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعه، يعني مُنع النبي من أن يحصل بين المسلمين القتال، لكن أُعطي ألا يأتيهم عذاب مثل الأقوام السابقة فيُستأصلون، ومنعوا من أن يُسلط عليهم غيرهم فيهلكهم، يفنيهم، لكن بقي عذاب على هذه الأمة أن يُسلط بعضهم على بعض.

فهمنا من الآية أن التسليط يحصل من الاختلاف والافتراق، والافتراق والاختلاف سببهم الرئيس: أنهم لا يتعلمون القرآن والسنة كما ينبغي. ولذا في كلام ابن العربي المالكي الأندلسي عندما يصف الحال يقول: "احتال الشيطان فأشغل الناس عن القرآن بالقرآن" يعني بدلاً من أن يفهموا معاني

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

القرآن ويتفوقوا عليها ويعرفوا عظمة الله وجلاله وأسمائه أصبح هؤلاء يقرؤون بقراءة وهؤلاء بقراءة ويتخاصمون على مخارج الحروف! وما تسمع عن الله وعن عظمته، إنما تسمع عن الحروف، معناه أن الشيطان أشغل المسلمين بالقرآن عن القرآن، فما تحققت الفائدة، انظر كم من السور التي نحفظها وعندما نأتي عندها ما نعرف الله منها، يعني مثلاً شخص يحفظ مطلع سورة غافر، ويعلم عن الله أنه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ ومع ذلك عندما تكلمه عن الذنب يقول: "ربنا غفور رحيم!" أنت تحفظ أنه غافر وكذلك هو شديد العقاب! فالأمر ليس على هواك.

المقصد أنه أصبح المحفوظ في مكان والحياة والمعاشة والفهم والانكسار والذل في مكان آخر! وهذا كله يعني أن القوم لم يعتصموا بالكتاب والسنة، نعوذ بالله من الخذلان!

نسأل الله أن يجعلنا ممن اعتصم بالكتاب والسنة ونسأله أن يجعل القرآن الكريم ربيعاً لقلوبنا ونوراً لصدورنا وجلاءً لأحزاننا وهمومنا.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته